
فولوديمير ساموييلينكو
زمن الأحجار المتناثرة
الترجمة من الأوكرانية:
عماد الدين رائف
رواية

زمن الأحجار المتناثرة

رواية

فولوديمير ساموييلينكو

الترجمة من الأوكرانية

عماد الدين رائف

إن جميع الشخصيات والمؤسسات والأحداث والوقائع فى هذا الكتاب من محض الخيال ،



١. أنطون

وصل بازيف.

أخبرني ذلك العديد من الأصدقاء على التوالي. اتصل أحدهم تلو الآخر، وصلت أصواتهم إثر رنين الهاتف المحمول الحاد الوقح، خلال المحادثات الغريبة حاولت التخلص من وطأة النعاس الصباحي.

أخفي، عادةً، صوت هاتفي المحمول ليلًا، لكنني أنسى أن أجعله في حالة الصمت مرة أو اثنتين في السنة. اليوم نسيت؛ فعوقبت بسبب نسياني، عوقبت بالاستيقاظ المبكر وخبر وصول بازيف.

أول من أيقظني كان روبن.

لا يوجد أي مسحة من الندم في صوتي، فهو ممن يعرفون أنني آوي إلى الفراش متأخرًا. أعمل ليلًا وأكره الاستيقاظ المبكر. أدرك تمامًا أن مفهوم "مبكر" يختلف بين شخص وآخر إذ يمكن أن يكتسب معنى آخر، حتى إن "منتصف النهار" بالنسبة إلى البعض قد يكون "مبكرًا".

- أنطون، أنا.. كما تعلم، بازيف في كييف. نحن بحاجة إلى رؤيته بطريقة ما؛ لأنني أعتقد أنه كعادته سيتجنب التواصل. لا أعرف إن كان سيمكث لوقت طويل لكنني أعلم بالتأكيد أنه وصل الليلة.

- لماذا قررت أن أمره يهمني بشكل من الأشكال؟

- لا تخدع نفسك، فأنت تعلم جيدًا أنك قد تكون الشخص الوحيد الذي يرغب بلقائه. عدني بأنك ستأخذني. خذني معك.

- أتعلم كم الساعة؟ ليس لدي أدنى رغبة في رؤيتك أنت أو أندريه!

ولكن قبل أن أتمكن من إغلاق الهاتف، تلقيت ثلاث مكالمات مماثلة أخرى من زملائي السابقين. كان الجميع بحاجة إلى شيء ما من بازيف، وخططوا لاستخدامي كأداة لمقابلته. لقد دمروا صباحي تمامًا، وكان علي أن أتذكر ما الذي علي فعله اليوم. أي يوم ينتظرني؟ بشكل عام، المكتوب يُقرأ من عنوانه.

لحسن الحظ، زوجتي وابني كانا في العزبة ولم توقظ هذه المكالمات اللعينة أحدًا غيري. كي أسترد وعيي قليلًا، حضرت القهوة وشغلت التلفاز. حاولت رسم خط واضح بين النوم وما ينتظرني من مشاغل. على الرغم من إغلاق الهاتف، أتاني صوت مذيع القناة الخامسة والعشرين، كشبح يقرأ بنبرة سريعة أخباره. ها هو ينهي النشرة للجمهور:

- كان يقيم في مدينتنا سابقًا، والآن أندريه بازيف رجل أعمال شهير. سيفتتح المعرض.

أي معرض هذا، وإلى متى سيستمر؟ لم أكن مهتمًا. كدت أن أرمي جهاز التحكم عن بُعد على الشاشة. لم أعط نفسي فرصة لأعرف أي شيء عن شؤون بازيف. ضغطت على الجهاز، حولت القناة نحو "نوافذ على العالم". أحب هذه القناة أكثر، فالمناظر الآتية من عالم آخر، التي يستبدل بعضها بعضًا، تترافق وموسيقى غريبة. إيقاع واضح مبهر، لكنه لا يتعارض مع وجبة إفطار

خفيفة. شيئًا فشيئًا جمعت شتات نفسي وانطلقت في جولات الأفكار.

لم تتبلور الخطط في رأسي، كما هي الحال دائمًا، لذلك قررت الاعتماد على مسار الأحداث. من يحتاج إلى الخطط أصلًا؟ سأتذكر، وما أتذكره هو ما سأقوم به.

افتتاح معرض الكتاب اليوم. كان حدثًا غير عادي. كان من المفترض أن يملأ المعرض ممثلو الشتات، وقام ناشرونا بفرك أيديهم، واستعدوا لهذا اليوم بالعديد من المنشورات عن الأوكرانوفيليا[1] والتاريخ الأصيل والنثر الحديث والقديم وما شابه ذلك. وعدت ثلاثة أصدقاء على الأقل أن ألتقي بهم هناك، كما أن علي أن أشارك ببعض الفعاليات. كان علي تذكر التفاصيل لكني لم أستطع. قبل المعرض، من الضروري الذهاب إلى العمل في المعهد (يبدو أنه ليس شيئًا مهمًّا)، والتعريج أيضًا على "دكفكا"، هذه الشفرة التي يصعب تفكيكها، والمضحكة إذا ما سمعها شخص ما، ما هي إلا اختصار لـ"دار الكتب الفكرية الأوكرانية الأفضل". المسألة أن إدارة "دكفكا" متغطرسة ولديها الكثير من الادعاءات حول مستواها العالي من الذكاء، وحيازتها على أفضل الترجمات واحتكارها المسار الذي لا يتزعزع للكتاب الأوكراني الرصين. ربما ينبغي علي التوجه إلى هناك أولًا وقبل كل شيء؛ لأنهم لن يتركوني وشأني أبدًا.

عند مدخل المنزل، وجدت أن سيارة ضخمة تغلق الشارع بالكامل تقريبًا، قفز منها رجل أسود ضخم لديه ابتسامة بيضاء مشرقة ووقف معترضًا طريقي. على الرغم من حرارة الجو المرتفعة، كان يرتدي سترة دافئة إلى حد ما، ذات أزرار.

- السيد أنطون؟ -لم تشب نطقه بالأوكرانية أي شائبة- اسمي مارميديوك. يتشرف بوانا أندريه بازيف بدعوتك أنت وعقيلتك مساء اليوم، الساعة السابعة، إلى حفل كوكتيل يسبق افتتاح المعرض. قل لي من أين أقلك؟ سيارتي الليموزين في خدمتك.

- بوانا أندريه؟ أتعلم يا بوانا مارميديوك. لحظة، أهكذا تخاطبون الجميع لديكم؟

- لا سمح الله! لا نطلق هذا اللقب على أي كان، ولا توجد حتى كلمة كهذه في لغتنا. هذا اللقب مخصص للبوانا أندريه، أما أنا فالسيد مارميديوك فقط. قال ذلك ثم اتسعت ابتسامته العريضة الصادقة على وجهه.

- واضح. لذا، يا سيد مارميديوك، من فضلك قل للبوانا أن يذهب إلى الجحيم بشؤونه ومعارضه وخططه ورحلاته وكل شيء آخر. واتركني أنا وزوجتي وشأننا!

مررت بسيارة الليموزين، ثم بسيارة رمادية اللون ذات رقعة حمراء على لوحتيها، وسرعان ما ابتعدت عن ذلك التدخل المزعج في حياتنا.

[1] مصطلح أدبي يتألف من أوكرانيا وفيليا (اللاحقة الإغريقية) تعني الحب. كثر استخدامه في العقود الثلاثة الأخيرة، يفيد معنى التعلق بالثقافة الأوكرانية ونمط العيش والمعرفة والتقاليد.

٢. أندريه

وقف أندريه فوق الجرف ونظر إلى ما يجسد دوامة الحياة بالنسبة إليه. مشهد نادر إلى حد ما، بفضله جاء الناس من جهات الأرض الأربع إلى هذه الناحية التي نسيها الله. بالطبع لم يأت إلا أولئك الذين يستطيعون تحمل مشقات مثل هذه الرحلة.

في الأشعة المائلة لشروق الشمس، تدحرجت موجة أكثر اضطرابًا مما حولها في المحيط اللامتناهي. سبحت سمكة، توجهت لتبيض مدفوعة بقوة العطش المستمر للحياة وبغرائزها. وقف الأفق كجدار ملتهب بلمحات فضية لا نهاية لها يتجول في فم النهر الهادئ عابثًا متموجًا، قاتل للوصول إلى مكان ما أبعد ثم اختفى في روافد النهر العليا. طفت أسماك القرش كملائكة الموت على طول الجانبين، كانت تقذف قطعًا دموية في التيار اللامتناهي. ومن فوق كانت الطيور تراقب، من وقت لآخر تهوي مثل أحجار على سطح الماء، تمزق قطعة منه صارخة بأصوات شبه بشرية. لم تتوقف الدوامة. لم يوقفها شيء، وهي المحدثة بدفع ميكانيكي منذ فترة طويلة، كانت تحمل وتحمل طوابير الحمم الحية مع التيار إلى أعلى النهر.

مخلوق غريب غير متبلور، متجانس ضخم، متغير الحيز والحركة، يتفاعل على الفور مع غزو الحيوانات المفترسة، يبتلعها وينتفها بكتلته الزئبقية. تذكرت كلمات شخص عاش قبل أكثر من مئتي عام في إمبراطورية كبيرة، حيث لم يتغير شيء حتى الآن. ذاك الشخص بدوره استعار العبارة من شاعر آخر وحرفها قليلًا، لكنها تكتسب الآن معناها الأصلي الحرفي: "وحش لقيط، ضخم مؤذ، مذهل نباح".

"هكذا هي حياتنا،" فكر أندريه، "الغرائز التي تحدد كل التطلعات وتلغي الإرادة. أو أن الإرادة تتغلب على الغرائز".

على الرغم من أن حياته كادت أن تكون مختلفة تمامًا. وهو في العقد الخامس من عمره عاش أحداثًا كانت لتكفي، ربما أربع حيوات على الأقل. نفذ جميع خططه، وكانت كثيرة، وإن لم تتطابق النتائج أحيانًا معها. أحبه القدر وداعبه وحماه، لكن اختار بازيف أحيانًا هدفًا للسخرية. في المقابل لم يحرمه من الحرية والعقل الصافي والقدرة على تحقيق الأهداف. لم يكن هذا ما أراده، لكن المسار إلى تنفيذ خطة كان يفتح بعض الاحتمالات الجديدة أمامه، فيحصل على بعض النتائج غير المتوقعة تمامًا، وكانت حياته في كل مرة تشهد شقلبة جديدة شيقة.

أحب أندريه هذا المكان. هنا تتغير الأفكار وتتشكل أفكار وخطط جديدة. ومن هذه الخطط، كما هي الحال دائمًا، سيظهر شيء جديد في وقت جديد في بلد جديد مع أشخاص جدد. لا يمكنه التوقف. هذا المشهد أمامه، هذه السمكة بالذات تلهمه أفكارًا عن مشاريع جديدة.

"طالما أنت شاب فأفقك لامتناه يغطي كل شيء، ومع تقدمك بالعمر يضيق هذا الأفق ويضيق، ويطبق عليك ويتشوه". ردد اقتباسًا من كتاب ألكسندر راديشيف[2] "رحلة من سان بطرسبورغ إلى موسكو"، الذي نُشر للمرة الأولى في عام 1790. حرف ألكسندر راديشيف شطرًا من البيت الـ514 من ملحمة فاسيلي تريدياكوفسكي[3] "تيليماخيدا" (1766)، وهي ترجمة شعرية حرة لرواية "مغامرات تيليماخوس" للكاتب الفرنسي فرانسوا فينيلون، نظمت على الوزن الشعري السداسي.

فخرجت معه على هذا النحو: "حدود العالم حدودك، وما إن تشيخ حتى تنحصر في قاعدتك الصغيرة المشوهة ذات الحواف غير المتزنة، مع مخاوف بسيطة مكتسبة تملأ عالمك".

هكذا بدا الأمر لأندريه، بدأ الضيق يغزوه بالفعل، بدأ يشعر بذلك جسديًّا.

جلس بازيف على حجر كبير فوق الجرف، دلى ساقيه نحو الهاوية، لسبب ما دفعه هذا المكان إلى التفكير، كما لو أنه في مشكال. كانت صور حياته تدور في أفكاره.

ها هي التسعينيات المضطربة. انهيار الإمبراطورية السوفيتية. الاشمئزاز من الآلة القديمة المخادعة. آلة الضغط والمساواة، وركود الحياة والطوابير والفقر. آمال وتطلعات وخطط جديدة قادت بسرعة إلى خيبات أمل ورعب. لصوصية مفضوحة وشعارات كاذبة جديدة وخسارة كاملة للمعالم.

شكل أصدقاء سني الدراسة المرساة الوحيدة الموثوقة. زملاء الدراسة السابقون، مختلفون جدًّا وغريبون جدًّا، لكل واحد منهم طريقته الخاصة المثيرة للاهتمام، أقوياء أذكياء. حتى في الجامعة، صمدت هذه الصداقة على الرغم من اختلاف الكليات والأصدقاء الجدد الطارئين والحياة الجديدة. في وقت لاحق، سلك كل منهم طريقه الخاص، ثم بحثوا عن طريقهم المشترك معًا، مدعومًا بصداقتهم، وكذلك حبهم لأوكرانيا. الحب من دون المعاملة بالمثل غير منطقي، كأن تحب شخصًا مريضًا جدًّا، وهو في المقابل لا يستجيب إلا بالمطالبات ويعذبك.

خاض المحاولات الأولى في العمل، شأنه في ذلك شأن أبناء البلد بأكمله تقريبًا، كان زمن الأعمال التجارية. الآن لا يستطيع حتى أن يتذكر كل ما كان عليه المتاجرة به. رحلات إلى بولندا، وتغيير العملة، وابتزاز العصابات والشرطة. يذكر مرة على الحدود، علقت السيارة بين مكتبين جمركيين في المنطقة "المحايدة"، ففي الجانب البولندي لم يظهر ضابط الجمارك الذي كان قد اتفق معه على كل شيء. كان عليه إجراء تحقيق للعثور على منزله، وعلى الرغم من أن درجة حرارة الضابط كانت أربعين، كان عليه إقناعه بالتوجه إلى الحدود لتخليص السيارة مع البضائع فيها.

ثم كان مخطط عمل "نظيف" للحصول على الأقل على بعض الأموال. وضع مع الأصدقاء قائمة واسعة من الشركات الخاصة العاملة ذات السمعة الطيبة وأرسلوا عرضًا تجاريًّا مكتوبًا بعناية ودقة لإنتاج صفارات للمراحيض. نعم، فلو حدث مثلًا أن ورق التواليت انتهى ستجدي الصفارة لإبلاغ من هم في المنزل بذلك. المشروع كله عبارة عن هراء كامل، مرسوم على عدة أوراق جيدة، مع رسوم بيانية ملونة وحسابات الجدوى، مكانه في سلة المهملات فقط. ومع ذلك، كان هناك تفصيل صغير واحد: من أجل استلام هذا الظرف وفتحه، عليك دفع مبلغ صغير جدًّا للشحن. من مجموع هذه المبالغ، بعد طرح تكاليف البريد الفعلية، تشكل رأس المال الأولي.

وأتت مرحلة الكتب. أولًا: رحلات إلى موسكو مع أكياس ضخمة، ملأها هناك ثم العودة وبيع تلك الكتب في كييف. نمت الأعمال بسرعة، طبعوا كتاب وصفات خاصة بالميكروويف. في ذلك الوقت، كانت أفران الميكروويف عصرية، ووصل الآلاف منها من كوريا والصين، لم تكن من دون قائمة الوصفات فحسب، بل حتى دون تعليمات التشغيل. وجد روبن رجلًا مجنونًا تمكن من سحب تلك الوصفات المهمة من مدونات جدته، وعدلها وفقًا لتكنولوجيا الميكروويف، وترجمها لتطبع في مجلد سميك مزود برسوم توضيحية ملونة. استثمروا كل الأموال فيها؛ تبين أن الكتاب

مكلف وناجح. في ذلك الوقت، أنشؤوا دار نشر على شاكلة المافيا الروسية، طغت على سوق منشورات الطهي، ولم يزعج أحدًا أن العمل الرئيس لدار النشر تلك، وكان الجميع على علم بالأمر، كان تصدير الدبابات للبلدان المتخلفة.

في وقت لاحق، وجد نفسه مع الكتب في شاحنة "سوبرماز" على طريق ترابي بالكاد يُرى، أحد الأماكن الأكثر عبورًا على الحدود الروسية، حيث تجري عمليات التبادل، كما هي حال الجواسيس وهم يقومون بعملية نقل "دبلوماسي" ويستبدلون البضاعة بحزم من المال في ضباب الصباح.

الضباب نفسه الآن أمامه حيث يلتقي النهر بالمحيط. ضباب أصلي، كان هنا منذ زمن بعيد. موجود قبل الإنسان ولن يذهب إلى أي مكان بعده.

تذكر الصفقة الأولى بعد وقت طويل على نضوب المال، عندما دفعوا ما كان معهم لمصنع كبير كان يحتضر ببساطة دون نقود، وأنتجوا ورق المينا اللامع، وانتقلوا مستخدمين الحيلة نفسها إلى مصنع مفلس آخر، وبدأ أيضًا في العمل على إنتاج ورق المينا النادر، الذي من دونه كان ليتوقف مشروع مصنع الطباعة.

بالإضافة إلى الفوائد الهائلة التي تلقوها وبيع المنتجات مقابل ثلث السعر، شعروا بأنهم متخصصون في تضميد الجروح، قادرون على بث الحياة في المصانع الميتة.

هكذا سارت الأمور. من الكتب إلى الورق والكرتون والدفاتر. في وقت لاحق كان لهم إنتاجهم الخاص، وهو مشروع مشترك مع الروس، حتى إنهم شاركوا في تسويات مقايضة الغاز في آسيا الوسطى، عندما بيعت البضائع الأوكرانية بخُمس أضعاف أسعارها في مقابل ذلك الغاز.

وألقت به الصدفة بطريقة ما في مدينة البندقية، حيث كان عليه أن يقضي ثلاثة أيام هناك وبحوزته تذكرة عودة ولكن من دون فلس واحد في الجيب. لليلتين وجد نفسه مجبرًا على الجلوس على مقعد بجوار بعض المهاجرين غير الشرعيين، وكان يراقب بخوف ما إذا كانت هناك شرطة في الجوار. كان عليه في تلك الأيام الثلاثة أن يتضور جوعًا أمام القنوات المائية الضخمة والعظمة الكئيبة للمدينة، أمام الحمام الكسول في ساحة سان ماركو، الشبيه بسكان البندقية الكسالى وغير المستعدين لشراء طعامه المعروض للبيع في كل زاوية. هذا الطعام المرغوب المخصص للحمام سينطبع في ذاكرته ويتبادر إلى ذهنه كلما تذكر مدينة البندقية حتى نهاية أيامه.

من بين كل الشبان في الشركة التجارية، كان أندريه الوحيد الذي يعرف كيفية التواصل مع قطاع الطرق والمسؤولين وشرطة الضرائب في آن معًا؛ لأنه لم يستطع التفريق بينهم. تمكن من التحدث إليهم جميعًا بلغة واحدة متساهلة، متفاعلًا مع عالمهم الداخلي أحادي الخلية، وكانوا يلبون طلباته وهم يستشعرون غريزيًّا ذلك الوحش النائم في بازيف، ومن الأفضل ألا يستيقظ. يمكن للأذكياء أن يميزوا جاذبيته أن يفهموا أنه في ظل ظروف أخرى يمكن أن يتحول بسهولة إلى زعيم عصابة أو رجل دولة يقدس الحقيقة، وهذا في الأساس الشيء نفسه.

سرت الأفكار مثل الغيوم غير المستعجلة نحو مكان ما في الماضي، كان بعضها يقترب من بعض، وتتشابك. عرف أصدقاء أندريه أنه سيعود مرة في السنة ويمكث هنا ليوم واحد فقط، لكنه في باقي الأيام سيكون بمفرده مع هذا العالم البري المهيب؛ وحيدًا مع أفكاره وذكرياته، في غربته.

تذكر واحدة من أكثر الحلقات بريقًا من تلك الحياة. الرفيق بازيف من "نفتوغاز"، الذي غدا فاحش الثراء في غضون عام واحد، لدرجة أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل بكل هذه الأموال. أمر بتنظيم مباراة لكرة القدم، في عيد ميلاده في القطب الشمالي. حدث هذا في الصيف، وكان الطقس ملائمًا للغاية، فقد ارتفعت درجة حرارة الهواء إلى 18 درجة مئوية تحت الصفر. للحصول على هدوء تام نادر كان منظم الحفل والعديد من الأصدقاء، بمن فيهم أندريه نفسه، يجلسون في خيمة مجهزة خصصت للحدث، وكان من الواضح أن لاعبي الفريقين المتباريين يتحركون على مهل مجاهدين. ولم يكن أحد يعلم أن رياضيًّا إيطاليًّا كان يشق طريقه إلى القطب من أجل تحقيق ذاته، ولتسجيل رقمه القياسي الخاص. بعد مشاهدته مكان الحفل، صرخ عبر جهاز الراديو بشكل محموم مستنجدًا: "لقد فقدت عقلي، لقد فقدت عقلي!". إلا أنه في النهاية، لم يفقد عقله بالطبع، لكن كان على الأطباء بذل جهد كبير لإعادته إلى الحياة الطبيعية. كان عيد الميلاد ناجحًا، واتضح أن الإيطالي غير المخطط له كان أبرز ما فيه.

ثم انتهى كل شيء، ولم يحدث الأمر بسبب تذبذب الأسواق والابتزاز الضريبي فحسب، بل بسبب وجود الزوجة ناتالكا، كانت أقرب الأصدقاء إليه وأفضلهم، نشب الحب بينهما، ثم توصلت إلى أنه من المستحيل العيش مع أندريه أكثر، وأسوأ ما في الأمر أنه كان يعلم بنفسه صحة كلماتها. في هذا العالم الجديد، حيث تغير الزمن السريع بآخر بطيء، كان حبهما يضيق. ومن كانت السرعة دأبه لا يمكنه إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. الزمن السريع يدمر العائلات والحياة اليومية. كان الأمر مؤلمًا بشكل لا يصدق.

أصبحت حرارة الحجر الساخن لا تطاق في أشعة الشمس.

تتشابك الأفكار وتتصارع الآن مثل الطيور فوق الماء، تتلوى كأسماك تسعى، تومض تتأرجح من زمن إلى آخر. انعطافات القدر الجديدة غطت على أحداث الماضي، الماضي بات مجرد ذكرى لشيء لم يعد موجودًا. وبالطبع تبقى الأفكار حول ما حدث وما ينبغي القيام به، وحول ضرورة العودة، وكان يعود دائمًا.

2ألكسندر نيقولاييفيتش راديشيف (١٧٤٩-١٨٠٢): كاتب وناقد روسي، أحد أعلام حركة التنوير. «رحلة من سان بطرسبورغ إلى موسكو» أشهر كتبه، ينتقد فيه العبودية والتضييق على حرية الفكر. أمرت الإمبراطورة يكاترينا الثانية بمصادرة جميع نسخ كتابه وإحراقها. اعتقل وحكم عليه بالإعدام سنة ١٧٩٠، ثم التمس العفو من الإمبراطورة وتبرأ علنًا مما كتب فحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا.

3فاسيلي كيريلوفيتش تردياكوفسكي (١٧٠٣-١٧٦٩): كاتب وشاعر وناقد ومترجم روسي، يُنظر إليه كأحد مؤسسي الأدب الروسي الكلاسيكي. كان الأمين العام للأكاديمية الروسية للعلوم. استفزت ترجماته ودعواته إلى التجديد السطات وجلبت له عداوات في أوساط المحافظين ما أدى إلى فصله من الأكاديمية.

٣. أنطون

في "دكفكا" صباحًا، كان المكان مزدحمًا إلا أنني شعرت ببعض الراحة بشكل مدهش. جلس عشرات الأشخاص في غرفة صغيرة، بمن فيهم عاملة التنظيف. أخبرني أحد المحررين همسًا، أن الاجتماع سيستمر لثلاث ساعات تقريبًا وهو مكرس لمشكلة مهمة، تمثلت فيما إذا كان يجب إنشاء ترويسات وتذييلات لكتاب جديد أم لا، أو الاكتفاء بإحداهما، وكان على كل الحاضرين أن يعبروا عن آرائهم الخاصة في الموضوع صراحة، وبغض النظر عما كان موقف كل مشارك، بعد عرضه رأيه سواء أكان مع أو ضد، كان يتعرض لانتقادات ساحقة من المدير.

لم يكن من الممكن العودة إلى نسخة مصححة من مخطوط الكتاب والمضي قدمًا، فقد أصر المدير على أن يكون كل مشارك حاضرًا شخصيًّا بدلًا من إرساله رأيه عبر البريد الإلكتروني. لقد كان راضيًا عني، كما لو أنني قريب مقرب لم أره منذ فترة طويلة، وجذبني على الفور إلى مناقشة، وأبدى اعتراضًا لم أفهمه، ولامني على عدم رغبتي في العمل بهدف تحسين مظهر كتب إحدى دور النشر المذهبية الأوكرانية. وأوضح لي: في الآونة الأخيرة، انخفضت الإيرادات بشكل كبير، ويرجع ذلك في الغالب إلى تصميم الكتب، بما في ذلك المظهر القديم للتذييل؛ لذا إما أن نرفض فكرة التذييل ذاتها بطريقة ثورية، أو نغير مظهرها جذريًّا! إن أي رأي ستبديه له قيمة كبيرة بالنسبة إلينا، سننظر فيه ونضعه في الاعتبار.

بدأ تعاوني مع دار النشر هذه بواسطة من أحد المعارف الذين كنا نلعب معهم التنس أحيانًا، بالإضافة إلى مهارته في الرياضة، كانت لديه موهبة في التعرف على الكتب عالية الجودة وسعة اطلاع متميزة في مجال طباعتها. كل هذا سمح له بالعمل في "دكفكا" لعدة سنوات متنقلًا بين بعض المناصب التحريرية الرائدة. ومع ذلك، كما هي الحال في دور النشر الأخرى، لم يمكث هناك لفترة طويلة بسبب تفوقه الكبير ومهاراته العالية كما يعتقد؛ إذ كان يسعى للقيام بكل شيء بنفسه، وبشكل أفضل بكثير من أي شخص آخر، أي من المترجمين والمحررين والمصممين والمخرجين والمنفذين والمسوقين، وكان يترجم هذه المهارات أوامر لا جدال فيها لكل من شاركه في نشر وتوزيع الكتاب على جميع المستويات. عندما تتعلق الأوامر هذه بالمرؤوسين، فإنها لا تسبب شيئًا يذكر سوى صرير الأسنان، إلا أنه عندما يستهدف المسؤولين الأعلى منه مستوى بها، بل حتى المدير نفسه، فإن وقته في دار النشر يكون قد شارف على الانتهاء.

إنصافًا له، يجب أن يقال إن نصيحته كانت في بعض الأحيان دقيقة بالفعل، لكنها كانت تستند إلى حد كبير إلى رغبته في تدمير القوانين القائمة بشكل ثوري، وهذا التحول يتعارض بالمجمل مع سيرورة العمل.

في هذه المناقشة كان موقفه غائبًا تمامًا.

هنا العديد من الأشخاص المختلفين ينظرون بعيون مفتوحة في شتى الاتجاهات. وحدها فتاة ضئيلة، رقيت مؤخرًا إلى منصب مسؤول في مكتب التحرير، كانت تستمع باهتمام إلى كل ما يقال، إذا ما جاز التعبير أن نسميه نقاشًا. كانت ترسم صلبانًا وإكسات، وبعض الأشياء الأخرى: ملاحظات في دفتر ملاحظات.

استقبل الموظفون مظهري وإصراري على ضيق الوقت ونقل النقاش إلى اجتماع تالٍ عاجل بسعادة كبيرة. أخرج المحرر الجالس قربي نص مقالتي لتعريفي على التعديلات، فلاقى ذلك موجة من الامتنان. ولوضع حد لمحاولات إشراكي في النقاش، جمعت نفسي وقاطعت حديث أحدهم:

يقوم أفضل الناشرين الإنجليز اليوم بتذييلات جانبية بنص مائل لترك مساحة من البياض لملاحظات القارئ.

كانت ملاحظتي غير اللائقة قادرة على توليد موجة جديدة من النقاش لساعات عديدة. ترك هذا الهراء انطباعًا حادًّا على المشاركين، فكان الجميع يحدقون بي في صمت. ما إن فتح أحدهم فاه لينطق بشيء، حتى قاطعه المدير بهمهمة في منتصف الجملة، أثناء المشهد الصامت الذي نشأ، احتفظت بنسخة احتياطية من مقالتي ووجدت بسرعة طريقي إلى الباب.

ترددت شائعات بأن دار النشر هذه يمولها رجل أعمال ألباني مهاجر وافر النشاط في ذروة حياته المهنية، وأن جذوره أوكرانية. لديه هوس بالفلسفة وموله بالثقافة وقد خاض حربًا صليبية فكرية على أراضي وطنه التاريخي.

يأتي مرة في السنة حاملًا حقيبة من المال تكفي لاستمرار دار النشر مدة طويلة، ويطالب بسرد ما حدث خلال فترة غيابه. في موطنه ألبانيا، لم يفعل ذلك، كان كل ما يتمتع به من سمعة أنه من الكولاك[4] مستغلي الشعب العامل الذين فروا إلى الأراضي الرأسمالية خوفًا من الانتقام؛ لذلك كان علي أن أجلس في حمى برجوازية أوروبا الغربية هذه. الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن هذه المنظمة، بدعم منه، أصدرت بالفعل عددًا من الكتب الرائعة، والترجمات الجيدة، والمختارات والأبحاث المنتقاة بعناية، والتي أصبحت -دون مبالغة- حدثًا ثقافيًّا في الحياة الأوكرانية. ومع ذلك، في السنوات الأخيرة، تأخر نشر الكتب، ولوحظت تغييرات ظرفية غريبة في النصوص، ربما مرتبطة بالتقلبات في وجهات نظر القيادة الألبانية بشأن الأحداث العالمية، أو ربما ذابت محتويات الحقائب حتى وصلت إلى الجفاف.

كل هذه الحقائق، بالإضافة إلى اجتماع اليوم نفسه، ارتبطت بالوصول القريب للراعي، الذي يجب إخباره بالتفصيل عن الحياة الفكرية المضطربة لدار النشر التي يرعاها.

بعدما نجوت بنفسي من شبكات النقاش الصعب الذي كان يدور حول الترويسات والتذييلات، تركت "دكفكا" وكانت تجول في رأسي فكرة غير متوقعة، أن أنظر في القاموس الألباني الأوكراني، إذ ربما اسم دار النشر ليس اختصارًا على الإطلاق، لكن يعني شيئًا ما بالألبانية؟

في الشارع، يتقاتل اللونان الأصفر - الأزرق، كما هي الحال دائمًا مع هذين اللونين، كحالهما في التاريخ الأوكراني القديم، حين كان يلقى عشرات الهيتمانات[5] الصغار الأقذار على منافسيهم، في الواقع، لم يكونوا أفضل ممن هم هنا الآن. صحيح أنه في تلك الأوقات كان من المعتاد أيضًا أن يعدم كل هيتمان سلفه، وهي على ما يبدو عادة لا تزال مستمرة كذلك. أحاطت حلقة من المتظاهرين بمنصة مستحدثة صدحت منها مكبرات الصوت في مقابل منصة الخصوم. كانت أعلام الجميع ترفرف، متشابهة للغاية، وكان الحشدان متماثلين من حيث العدد تقريبًا. وحدهم المارة توقفوا قليلًا للنظر والاستماع إلى ما يصاح به على المنصتين، ثم مضوا في طريقهم. مرت جدة مع حفيدها، توقفت عند حامل علم. أنَّ الطفل:

- أريد علمًا، أريد علمًا.

سمع حامل العلم طلب الطفل، استدار نحوهما وقال للجدة:

- دعيه يمسك به، بينما أركض إلى تلك الزاوية، يبيعون الفطائر هناك.

أفهمها الرجل أن التجمع ليس ضد الحكومة، على الأقل ليس بشكل مباشر. أوضح بعض الفروقات بين أجنحة المعارضة المختلفة التي فرزت العلاقات بين فصائلها. ابتعدتُ بنفسي.

- لا تذهب إليه! أرجوك، لماذا نسيت هناك؟ لماذا تحتاج إليه؟ ابق هنا.

شعرت بالعيون مسلطة علي. نظرتُ من دون قصد فرأيتُ فتاة قربها كلب هاسكي أبيض. في الواقع، كانت توجه حديثها إليه. نظر إلي الهاسكي الوسيم ذو الأرجل الأربع بعينيه الزرقاوين باهتمام. استغرق الأمر دقيقة أخرى للتخلص من فكرة أن الأمر لا يتعلق بي، بل يتعلق بحيوان أليف آخر عند ناصية الشارع.

- لا تذهب إلى ذلك الكلب، لماذا تحتاج إلى القتال مرة أخرى؟ الآن، دعنا نذهب للمنزل ونكتب مقالًا للمجلة!

نظر الهاسكي نظرة ريبة إلى صاحبته بعينيه الذكيتين، كما لو كان يستمع إلى الاقتراحات أو يزينها. ففكرتُ: "علي أن أفعل ذلك ربما. أيجب علي أن أقتني حيوانًا أليفًا لطيفًا لأتمكن من كتابة مقالاتي؟".

تجاوزت المقاتلين على منصب منقذ أوكرانيا الجديد؛ فاتتني السيارة الرمادية ذات البقعة الحمراء على لوحتيها. توجهتُ إلى مؤسستي. الصرح العلمي، الذي كان حقًّا -على الرغم من بعض الانتهازية والبيروقراطية- صرحًا علميًّا.

4كولاك: حرفيًّا تعني القبضة، اصطلاحًا فئة الفلاحين الأغنياء (وفق التقسيم الثلاثي للفلاحين: فقراء، متوسطي الحال، وأغنياء) في نهاية العهد القيصري وبداية العهد السوفيتي، حين صنفوا في خانة «أعداء الشعب».

5هيتمان: لقب يحمله رأس الإمارة أو الدولة لدى القوزاق في أوكرانيا بدءًا من منتصف القرن السابع عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر، بعدما توسعت حدود الإمبراطورية الروسية إلى سواحل البحر الأسود.

٤. أندريه

حمله مصيره الساخر، كما هي حاله دائمًا، إلى شقلبة أخرى. كان مرتبكًا، أفكاره تدور حول حياة مفقودة، مثل كلب طُرد إلى الشارع، لم يفكر حقًّا في ما يجب فعله بعد ذلك؛ لأنه كان يعلم أن مفاجأة مصيرية تنتظره.

كان يجلس في حافلة صغيرة في لوكيانوفكا، لاحظ من زاوية عينه فتاة سوداء كانت تحاول أن تستدل بالإنجليزية إلى الطريق. في كييف، يوجد عادةً عدد كافٍ من الأشخاص القادرين على فهم الأجنبي والإجابة عن أسئلته، إلا أنهم هذه المرة اختفوا جميعًا. اقترب أندريه من الفتاة، استسمحها، وقال إنه سيكون سعيدًا لمساعدتها. اتضح أنها كانت بحاجة إلى الذهاب إلى الشارع التالي. لم يقترح عليها مكانًا للتنزه بل رافقها إلى خروتشوفكا، حيث استأجرت شقة مع صديقتها.

في الطريق، اتضح أن الفتاة تزور أوكرانيا بدافع الفضول وستمكث بضعة أيام، وأنها وصديقتها ذاهبتان إلى سويسرا للدراسة في إحدى مدارس الكمبيوتر. اختارت أوكرانيا بالصدفة، كدولة لم يعرف أحد عنها شيئًا من قبل، وفجأة باتت معروفة للعالم بأسره بعد الأحداث الأخيرة. استأجر لها أحد الأصدقاء شقة عبر الإنترنت، وهما في كييف لليوم الثالث سعيدتان تمامًا بهذه المدينة، ولم يتبق لهما سوى ثمانية أيام للعيش فيها.

في ذلك الوقت، رحبت بلادنا بسعادة بالأجانب، إذ كانوا يدفعون ثمن إحدى التأشيرات الأغلى في العالم، ويتركون أكبر قدر ممكن من العملات الأجنبية على الأراضي الأوكرانية. هذا كل شيء. ودعها أندريه بأدب وغادر. وفي اليوم التالي رآها في متجر السمك عند الزاوية، أو كما قالت لاحقًا، في "مكتب الأسماك". آنذاك، لاحظ للمرة الأولى كم كانت جميلة.

بالطبع، من الصعب على الأوروبي أن يقدر الجمال الإفريقي، لكن كل شيء في الفتاة كان متناغمًا وممتعًا للعين. صوتها المنخفض، ونظرتها الرصينة، وتجربتها الحياتية الغنية إلى حد ما، وروح الدعابة الرائعة لديها، كلها أمور ميزتها عن الجمهور العادي، على الرغم من لون بشرتها غير العادي.

كان اسمها ليزي. بطريقة ما حدث الأمر. رافقها أندريه، أخذها مرة أخرى إلى خروتشوفكا. كان عقل الفتاة الفضولي والقدرة على ملاحظة التفاصيل ومقارنة الظروف أمرًا مذهلًا بكل بساطة. الاهتمام الحقيقي بكييف، الذي كان أندريه يعرفه ويحبه جيدًا، وتعطشه الذي لا يعرف الكلل لاختبار شيء جديد، أجبره على النظر إلى ليزي باهتمام أكبر، لتجرفه بعيدًا.

وبطريقة ما حدث أنه بعد بضعة أيام قضيا الليلة في السرير نفسه. حدث ذلك بشكل طبيعي، كما لو أنه كان من المفترض أن يحدث. اندلعت شرارة بينهما فوحدت ساكني قارتين بعيدتين. شفتان حارتان، بشرة ناعمة وثابتة، عناق ساخن، تأوهات.

كانت مهتمة جدًّا باللغة الأوكرانية التي أتقنتها بسرعة مذهلة.

وبعد أيام قليلة انتهى كل شيء. أثناء الوداع قالت له: "شكرًا لك على كل شيء"، بصوتها الغريب ذي اللحن الطويل.

٥. أنطون

كان علي أن أفعل أشياء: أن ألتقي ببعض الزملاء، وأن أسلم الجزء الخاص بي من الدراسة الجماعية الجديدة التي أُطلق عليها على الهامش اسم "المقبرة الجماعية"، وأسلم مسودة برنامج القسم الخاص بنا من المؤتمر المرتقب إلى منظميه، وأن أتحدث أيضًا إلى طالب يتابع الدراسات العليا. كنت آمل أن ألتقيه لساعة ونصف أو ساعتين، وأشرب القهوة وأتعرف على الأحداث الرئيسة في معرض الكتاب.

ركبت المصعد ومشيت عبر الممرات الصلبة في المبنى الستاليني، وصلت أخيرًا إلى قسمي. ها هو المقعد المعروف في قسم الإدارة والاقتصاد في المعهد، اشتهر عندما كان يجلس عليه أحد أكثر المؤرخين معرفة في أوكرانيا، وهذه الحقيقة جعلتني هدفًا للعديد من نكات الزملاء، بالطبع أولئك الذين كانوا قادرين على ذلك في السابق. وجدت على ذلك الكرسي أحد زملاء المدرسة سيرغي لافرينتيفيتش، جالسًا مسترخيًا.

خلال سنوات المدرسة في ذلك الفصل المليء بالشخصيات المثيرة للاهتمام، لم يكن من المعتاد بالنسبة إلينا أن نعطي بعضنا بعضًا ألقابًا، على عكس مدارس أخرى، حيث كان لدى بعض الأطفال أيام الدراسة أسماء وألقاب لم تكن مألوفة تمامًا للأذن. عدد قليل جدًّا من أولئك لا تزال أسماؤهم ملطخة بألقاب، لكن معظمهم يُنادون بأسمائهم فقط. الاستثناء الوحيد هو هذا الشخص الذي يجلس الآن على مقعدي. منذ الطفولة، كان متقمصًا شخصية حامل الأسرار ويجسد المصالح العليا غير المفهومة للآخرين، وهو الوحيد المدرك ماهيتها. لم يكن "واشيًا"، لكن نظرته العميقة الثقيلة التي لا بريق لعينيه فيها، لم تثر المخاوف والحذر بيننا فحسب، بل أيضًا بين المعلمين. ليس من المستغرب أننا من الصف الأول كنا إذا ما تحدثنا عنه أو خاطبناه نسميه باسمه واسم عائلته، وكأننا كلنا تواطأنا على اعتباره شخصًا غير عادي. كذلك ليس من المستغرب أن سيرغي لافرينتيفيتش اختفى عن الأنظار بعد المدرسة، ويبدو أنه حظي بسرعة البرق بمهنة في مجال الاستخبارات. في البداية، استمات في الدفاع عن الإمبراطورية السوفيتية إلى أن تفككت، فصار لاحقًا وطنيًّا أوكرانيًّا بارزًا؛ تجنبناه. أعجب بي كصديق من دون أن يسألني عن رأيي في هذا الأمر. التقينا في بعض الأحيان، عادة عن طريق الصدفة. ومرة كل ستة أشهر كان يظهر بشكل غير متوقع مع ناتالكا وزجاجة من كونياك وبعض ما يطيب أكله. لم يكن هناك شيء للتحدث عنه معه، دارت أحاديثنا حول بعض الأشياء التافهة. يبدو أنه ليس لديه من يتبادل معه كلمة، ولم أكن بحاجة إلى أي شيء منه؛ لذلك جعلته هذه اللقاءات سعيدًا جدًّا، وربما أشعرته باحترام الذات والحاجة إلى شخص ما. لم يفعل شيئًا سيئًا لنا، لذلك كان عليه أن يتحملنا بأدب. علاوة على ذلك، كان الكونياك الذي يأتي به ذا جودة عالية.

كان هناك موظفان آخران في الغرفة ينظران إلى ضيفي ببعض الريبة.

لم تجر محادثات.

- مرحبًا، أنطون، -قام من مقعدي- أندخن؟

لم أدخن منذ عشر سنوات، لكنني تبعته بطاعة إلى الدرج.

- آسف للتطفل، لكني أقصدك في مسألة -انتقل سيرغي لافرينتيفيتش على الفور إلى النقطة الرئيسة- وصل أندريه بازيف إلى كييف الليلة. هناك -أشار بوضوح إلى الأعلى- مهتمون جدًّا بالمعلومات حول خططه المستقبلية. بمن سيلتقي هنا، وما الذي سيتحدث عنه، وماذا سيفعل بعد ذلك. نعلم أنه جاء ليفتتح عددًا من الفعاليات الثقافية: معرضًا، حفلات موسيقية، أشياء أخرى. ومع ذلك، فهو شخص مؤثر في وطنه الجديد، ولكنه مندفع للغاية وعرضة للمخاطر، وأوكرانيا مهتمة الآن بعلاقات جيدة مع تلك المنطقة الإفريقية، وليس فقط من أجل المعادن. أنا بالتأكيد لا أستطيع أن أخبرك كثيرًا...

- كما تعلم، سيرغي لافرينتيفيتش، -قاطعت حديث رجل الدولة- يمكنك أن تصطف أنت أيضًا مع الآخرين وتذهب إلى الجحيم. لن أرى بازيف، ولن أتحدث معه، لا يهمني بأي حال من الأحوال. وهناك -رفعتُ أيضًا إصبعًا مهمًّا إلى فوق- يمكنك أن تنقل لهم أن عملية تجنيدي لم تنجح!

- أوه، لماذا تقول ذلك؟ أي تجنيد؟ لا تنفعل. أتظن ذلك الآن؟ على أي حال يمكن أن تتغير الأمور. لديك هاتفي.

- لقد دخنت وكفى.

تركته على الدرج دون وداع وعدت بضيق إلى غرفتي. لحسن الحظ، كان طالب الدراسات العليا وأمور أخرى في انتظاري بالفعل، ما سمح لي برمي تلك المحادثة القبيحة من رأسي والتحول إلى اهتماماتي التاريخية.

٦. أندريه

المصائب لا تأتي فرادى؛ أثناء لملمة تبعات الكارثة، تُطلب الرشى على عجل، ويجري البحث عن "الوسطاء" أي الأشخاص القادرين على "حل المشاكل". وقعت واقعة الأزمة المالية محدثة أضرارًا شديدة، بدءًا من روسيا المجاورة وانتهاءً بجميع البلدان التي كانت منضوية في الاتحاد السوفيتي. بالطبع كل شيء حُسم على الطريقة السلافية. في البداية، كانت البضائع خارج أوكرانيا، وخلال انهيار سعر صرف الروبل فقدت ثلاثة أرباع قيمتها. ثم اغتيل رئيس البنك في موسكو، حيث كانت أموال الحسابات المشتركة مع الشركاء الروس، ما وضع حدًّا لاحتمال انسحابهم.

بعد ذلك، تركه شريكه في كييف. لقد كان أوكرانيًّا طوال حياته، أما في هذه الأوقات الصعبة عندما حلت المصيبة تبين أنه يهودي وشعر فجأة بانجذاب لا يقاوم إلى "وطنه التاريخي". أخذ ما تبقى من أموال معه ونسي أن يقول وداعًا. وأخيرًا، بدأت البنوك المحلية تطالب أندريه بسداد مبكر للقروض المشتركة، ما أشار إلى عواقب سلبية محتملة.

ومع ذلك، ما كان ليكون بازيف إن لم يستطع حل كل تلك المشاكل. كلمة الشرف التي لا تتزعزع والتي صنعت له سمعة طيبة في عالم الأعمال كان لها جانبها السلبي. حُلت المشكلات أخيرًا، ولم يكن لدى أحد أي شكوى، لكن الأعمال التجارية اختفت تمامًا ومعها الأموال. هنا تجدر الإشارة إلى أن ناتالكا كانت تركته حتى قبل ذلك، أي تركته شخصًا كان لا يزال ثريًّا للغاية.

سخر منه القدر ذات مرة، وأخذ زوجته وثروته وكل العقارات وانسدت الآفاق.

إلى جانب أنه على قيد الحياة بقيت له الحرية (في هذا البلد الجديد يمكن أن ينهض)، والأحلام وسيارة مرسيدس سوداء كإشارة من القدر إلى العمل الذي ينتظره. عمل عليها خلال بضعة أشهر سائق تاكسي عاديًّا.

ونجح أيضًا في ذلك بطريقة ما، حيث لم تكن لديه حياة أخرى غير الرحلات الليلية في كييف خلف مقود حصانه الفولاذي.

ذات ليلة، في مكان ما في شوليافكا، التقط أندريه راكبًا بدا مألوفًا. كان نشيطًا قليلًا وفي مزاج للدردشة.

- كيف حالك سيد أندريه؟ ما الذي دفعك إلى ممارسة هذا النوع من العمل؟

- أتعرفني؟ أستطيع أن أرى أن وجهك مألوف، لكن سامحني، لا أتذكر.

- هذا لأن الأكبر سنًّا لا يهتمون بالأصغر، والصغار يتذكرون الأكبر سنًّا جيدًا. ارتدنا أنا وأنت المدرسة نفسها، لكني أدنى بثلاثة فصول.

تذكر أندريه ذلك الصبي الغريب صاحب المقالب، الذي تسبب بصداع للمعلمين. تلميذ دائم التأرجح فوق هاوية الطرد من المدرسة ليس بسبب أدائه الدراسي الضعيف فقط، ولكن في الغالب بسبب سلوكياته الغريبة التي أضرت بسمعة المدرسة. سمع بازيف من شخص ما أنه في وقت لاحق، خلال الحرب في أفغانستان، تميز بشجاعة كبيرة، بحيث كان مفخرة لرفاقه.

نظر أندريه إليه باهتمام، بقدر ما يسمح الضوء الخافت داخل السيارة. لم يعد الآن فتى، بل رجل ذو كرش ملحوظ، يعاني من التجاعيد على وجهه، وهو يرتدي ملابس أنيقة. تذكر المتهور السابق بابتسامته الودية وعينيه الضيقتين الصغيرتين.

استمرت المحادثة قليلًا. كان هناك شعور بأن الرجل يتفاخر، يكافح لإقناع شخص كان مرموقًا بأنه حقق الكثير في الحياة. كان الفصل الذي درس فيه أندريه من أبرز الفصول في تاريخ المدرسة، لذلك أراد الراكب أن يثبت أنه حقق في الحياة أكثر من أحد قادة ذلك الفصل.

اتضح أنه بعد أفغانستان، عمل بسرعة البرق في بعض المراعي البيروقراطية الدولية، والآن يعمل تقريبًا في السفارة الأوكرانية في سويسرا، ويشغل منصبًا مهمًّا. لم يستطع أندريه أن يغفر مثل هذا التبجح بسهولة، لذلك أعلن أنه مستعد لزيارة الصديق القديم الجديد في مكان عمله. ارتدت الفكرة، واشتعلت النيران في صدر الرجل الذي ربما ما كان ينتظر شيئًا كهذا.

نُسي ذلك اللقاء الليلي والمحادثة تدريجيًّا.

وفجأة، في غضون أسبوع، وجده ذلك الصديق، وردد الشيء نفسه عن سويسرا وعرض عليه زيارة سفارة هذا البلد من أجل الحصول على تأشيرة.

- دعوة من سفارتنا في انتظارك. سوف تستقل حافلة دولية. ستدفع ثمن البطاقة بنفسك، وستعيش معي. أسبوعان سيكونان كافيين لك.

- ليس بوسعي -حاول أندريه أن يظهر أنه لا يستطيع- ستذهب وحدك.

- رخصة القيادة التي بحوزتك صالحة هناك.

وهكذا، في غضون ثلاثة أسابيع، وجد بازيف، الذي لم يكن مقيدًا بأي عمل تجاري، نفسه بالفعل في أراضي الاتحاد السويسري.

وبعد أسبوع في بلدة أفينش، في "مكتب سمك" كبير، دخله أندريه بدافع الفضول، أغمض شخص ما من الخلف عينيه براحتي يديه وبصوت ليزي الفريد سمع بالأوكرانية:

- كم مضى من الوقت، اشتقت إليك!

٧. أنطون

- تاراس، انتهينا لليوم. إن كان لديك المزيد من الأسئلة، لا بأس، حتى الاجتماع التالي لدي ما يقرب من ساعة، إنها لك.

- السيد أنطون، ما رأيك بشكل عام، ليس سيئًا؟

- بشكل عام، ليس سيئًا، ومع ذلك، إذا كنت مهتمًا حقًّا برأيي الشخصي، فإن المؤرخ الذي يغطي مجال اهتمامه العالم القديم يتعين عليه إما أن ينخرط في الحفريات بنفسه، أو على الأقل أن يعرف عدة لغات، بما فيها اللغات الميتة، وليس فقط مجموعة قياسية مثل الفرنسية والإنجليزية والألمانية، من دون هذا، علمنا هو ببساطة بلا جدوى. بالطبع، من الأفضل الجمع بين الأمرين. إن الاعتماد على أعمال الآخرين أمر جيد جدًّا، ولكن عليك دائمًا أن تكون قادرًا على المقارنة والتحقق من آرائك واستنتاجاتك. يجب أن تتقن عددًا من التخصصات، ويجب أن تحتل اللغويات مكانة بارزة في هذه القائمة. خلاف ذلك، ستظل القمم بعيدة المنال. إذًا ما الذي يثير اهتمامك؟

- السيد أنطون، لدي طلب غير عادي. في الواقع، لدي صديق يعمل في الراديو ومن وقت لآخر يجذبني إلى برنامجه الشهير عن تاريخ العلوم. في المرة المقبلة سيكون الموضوع عن ألغاز الحيثيين. أعلم أنك لم تتعامل دائمًا مع الحضارات القديمة على أراضي أوكرانيا وقد قرأت مقالاتك عن الحيثيين. ربما يسمح وقتك أن تتحقق من موادي؟ أود أن أعرف رأيك. ففي الواقع لا أحد في أوكرانيا يعرف تاريخ الحيثيين أفضل منك.

بطريقة غريبة، تسارع إيقاع قلبي.

- أهذا البحث موجه لتلامذة المدارس؟

- لا، أوسع من ذلك. لكل من يهمه الأمر. حسنًا، للطلاب الكبار أيضًا. لقد أنشأتُ مجموعة لا بأس بها من المتابعين، قد استندت إلى أعمال المؤرخين تريفور بريس، وفلاديسلاف أردزينبا، وأوليفر غورني، وسباتينو موسكاتي، وبالطبع على مقالاتك. على الثلاثة الأخيرة تحديدًا، وخاصة تلك التي ظهرت في الخريف على صفحات "حولية العلوم التاريخية". بالطبع، كان لا بد لي من تبسيطها وتعميمها بشكل كبير.

لا يريد القلب أن يهدأ. ظهر عرق لزج على جبهتي، على الرغم من أن الغرفة كانت باردة. بعد تهدئة أنفاسي قليلًا، أجبت بصوت خشبي:

- حسنًا، سوف ألقي نظرة. في الواقع، لم يتسن لي أن أجالسك خلال الفترة الماضية في معهدنا، وكما نصحتك، كان علي أن أعمل في الحفريات وأتقن اللغات الميتة. كان ذلك لفترة طويلة. ماذا لديك؟ فتحت المظروف الورقي.

"... في القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد، ظهرت حقبة من التغييرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم. بسبب الظروف الطبيعية الخاصة في أحواض الأنهار الكبرى، تطورت الحضارة بشكل أسرع، وظهرت الجماعات السياسية في وقت أبكر مما كانت عليه في أماكن أخرى. بعد اكتساب الوحدة الداخلية، بدأت هاتان الدولتان، مصر وبلاد ما بين النهرين، في عملية

التوسع والغزو، وكالعادة، في منافسة إحداهما الأخرى. بقيت المناطق والشعوب الأخرى المجاورة، التي كانت أقل حظًا، شاهدة سلبية على الأحداث التي عبثت بمصيرها، إلا أن وقت التغيير آت، وبين أهل الجبال ثم قبائل الصحراء تشكلت دول قوية قادرة على منافسة حضارتي وديان الأنهر. كانت شعوب الجبال قادرة على إنشاء دول قوية في غرب آسيا، مثل دولة الحيثيين، وكان مصير هذه الشعوب مختلفًا.

كتب المؤرخون القدماء أنه خلال عصور ما قبل الكتاب المقدس، حكمت العالم ثلاث إمبراطوريات قوية: مصر وبابل وآشور. يتفق الباحثون الحديثون معهم في ذلك. هذه الإمبراطوريات الثلاث، الواقعة في الشرق الأوسط، خلفت وراءها آثارًا ومدنًا رائعة؛ لذلك بدت فرضية وجود إمبراطورية رابعة لم تترك أي أثر، مسألة خيالية. بالعودة إلى منتصف القرن التاسع عشر، عثر عالم الآثار الفرنسي تشارلز فيليكس تيسكيير، وبعده الإنجليزي ويليام هاملتون، على أنقاض مدينة قديمة في وسط الأناضول، نجا العديد من جدرانها ونقوشها ذات الحروف الهيروغليفية الغريبة، إلا أن هذا الاكتشاف لم يثر الكثير من الاهتمام. بعد ذلك، لمدة نصف قرن تقريبًا، بدأ العلماء في اكتشاف آثار للغة غير معروفة، وعلى مساحات مفتوحة كبيرة. تجرأ البعض على الإيحاء أن هذه النصوص الغامضة التي لا يستطيع أحد قراءتها، هي لغة تلك الإمبراطورية العظيمة الرابعة التي بادت واندثرت.

بعد تفكيك رموز المدونات التاريخية الفرعونية، اتضح أن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة كانت لهم علاقة بدولة تُدعى حاتي، فطالما أن تحتمس الثالث عبر نهر الفرات وغزا شمال سوريا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، هذا يعني وجود دولة قديمة وقوية.

في عام 1906، سافر المستكشفان ثيودور ماكريدا وهيوغو وينكلر إلى أنقاض تلك المدينة القديمة. كل الآثار واللُّقى احتوت على إشارات لثقافة عظيمة. خلال الحفريات، وجد العالمان السالف ذكرهما عدة ألواح طينية مغطاة بعلامات على شكل إسفين بلغة غير مألوفة، كانت تُقرأ من اليسار إلى اليمين، إلا أنهما ومن أجل فهم شيء ما، كانا بحاجة إلى مقارنة النص بأي نص مألوف. بعد عدة أسابيع من البحث حدث أمر رائع، إذ عثرا على لوح طيني يحمل نصًّا مكتوبًا بلغة التجارة الدولية لتلك الحقبة، أي الأكادية، لغة بابل الرسمية آنذاك.

تضمن اللوح اتفاقية سلام بين الفرعون المصري رمسيس الثاني ومنافسه الملك العظيم حاتوسيلي الثالث من أرض حيتا. وهي واحدة من اتفاقيات السلام الأولى، إن لم تكن الأولى على الإطلاق، إذ يزيد عمرها على ثلاثة آلاف عام. في تلك العصور القديمة، كان يسمى حكام الإمبراطوريات الثلاث الكبرى مصر وبابل وآشور لقب الملوك العظماء، وفي هذه الصفقة دعا فرعون الملك المذكور بهذه الصفة.

عثر هذان العالمان بالفعل على دليل أن الإمبراطورية العظمى الرابعة في العالم القديم كانت موجودة. لسوء الحظ، لم يستطع وينكلر الإجابة عن السؤال، كيف اختفت مثل هذه الإمبراطورية القوية، ولم تترك آثارًا وراءها؟ استغرق الأمر وقتًا طويلًا للإجابة عنه.

على مدى السنوات التالية، وجد علماء الآثار عشرة آلاف لوح طيني وشظايا ألواح. وقد أظهرت الدراسات أن هذه المدينة لم تكن عادية، بل كانت عاصمة الحيثيين وكانت تسمى في ذلك الوقت

حاتوسا. كُتبت العديد من النصوص المعثور عليها باللغة الأكادية، لكن معظمها كان مكتوبًا بالحيثية غير المفهومة.

لمعرفة شيء ما على الأقل عن هذه المملكة، كان من الضروري فك شفرة اللغة الغامضة. في عام 1915، أجرى اللغوي التشيكي بيدريش غروزني بحوثه بعيدًا عن الأنظار. افترض أن اللغة الحيثية تتمتع بجميع الخصائص النحوية المميزة للغات الهندو أوروبية قياسًا على الألمانية والإنجليزية. وكان عالم اللغة هذا محظوظًا ليس فقط في كسر الشفرة، ولكن أيضًا في قراءة نصوص أقدم عائلة من اللغات الهندو أوروبية المعروفة اليوم، والتي تشمل السنسكريتية واللاتينية واليونانية. فوجئ العلماء بكيفية وصول لغة من القارة الأوروبية إلى الأناضول وهي جزء من آسيا. نشأت العديد من النظريات حول الموضوع، لكن إلى الآن لم يتوصل العلماء إلى اتفاق حول كيفية وصول المتحدثين الأصليين بهذه اللغة إلى هذه الأراضي.

مكنت إنجازات غروزني العلماء من قراءة أكثر من خمسة وعشرين ألف لوح طيني عُثر عليها في حاتوسا ومدن أخرى. كانت تتضمن نصوص اتفاقيات، ورسائل، وقوانين، وصلوات، وأوصاف الطقوس، وحتى الأعمال الأدبية وأكثر من ذلك بكثير، وقد ألقت الضوء على تاريخ الحيثيين والشرق الأوسط بشكل عام. احتوت الألواح على أسماء المدن وأسماء الملوك والملكات والشخصيات والكتبة. بعد ثلاثة آلاف سنة من الصمت، بدأ الحيثيون يروون قصتهم بأنفسهم.

كان الأمر على هذا النحو: في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ما كان بإمكان المرء أن يحلم بحياة هادئة. استمرت الحروب التي لا نهاية لها بين الدول المشكلة حديثًا. من أجل البقاء وعدم استنزاف الموارد، كان على هذه الممالك أن تتحول إلى الغزو. عاش شعب يُدعى حاتي في الأناضول منذ زمن طويل. غزا الناطقون الأصليون باللغة الهندو أوروبية قبائل حاتي، وأخذوا اسمها واستوعبوها في ثقافتهم.

حملت هذه القبائل معًا اسم الحيثيين. البيانات المتعلقة بالفترة الأولية للدولة الحيثية مجزأة وغير موثوقة. يُعتقد أنه في القرن المذكور، تمكن الحاكم الحيثي من توحيد جميع القبائل الحيثية تحت حكمه، وبالتالي وضع الأساس لمملكة الحيثيين. أسس العاصمة حاتوسا واتخذ اسم حاتوسيلي، حرفيًّا "رجل من حاتوسا". كان بعيدًا عن الملك الحيثي الأول. ومع ذلك، فإن أفعاله هي التي كتبت في التاريخ. محاطة بالقبائل المعادية، مثل أرزافا وحوريتس، وممالك بلاد ما بين النهرين القوية، كان القتال ضروريًّا. في وقت قصير، استولى الحيثيون على أراضي شرق الأناضول وشمال سوريا. استسلمت الدول دون قتال، وتجنبت الدمار والنهب، وكانت أي محاولات للمقاومة تتسبب بغضب الجيش الحيثي القاسي.

وسعت الدولة الفتية حدودها من أجل تحديد المسار الكامل لتاريخ الشرق الأوسط لثلاثمئة عام.

بُنيت حاتوسا في مكان غير عادي. لا يصلح على الإطلاق أن يكون لعاصمة إمبراطورية عظيمة. كانت هذه المدينة الرائعة والمهمة نائية بشكل مدهش ومنعزلة عن جميع مراكز الحضارة، وكان من الصعب الدخول إليها. كما نعلم، بنيت جميع المدن الرئيسة في تلك الحقبة على مفترق طرق التجارة، بالقرب من الأنهار أو البحار. على الرغم من أن الطريق التجاري المؤدي إلى البحر الأسود يمر بعاصمة الحيثيين، إلا أن الوصول إلى حاتوسا كان صعبًا للغاية. كانت المسافة منها

إلى أقرب نهر نحو سبعين كيلومترًا، وإلى البحر أطول.

كانت المدينة معزولة عن العالم بسبب الجبال العالية التي تحيط بها، وتقع على تلال غير خصبة للغاية ذات مناخ شديد القسوة. غطت الثلوج ممرات تلك الجبال العالية لعدة أشهر، مما زاد من عزلتها. من الصعب حتى تخيل سبب قيام الحيثيين ببناء عاصمتهم هناك. ومع ذلك، اتضح أن مثل هذا الموقع المعقد للمدينة صغير وله مزايا محددة.

فبعد التفكير في كل التفاصيل عن هذه المدينة. تعتبر حصنًا مهيبًا يمكنه الصمود في وجه أي هجوم. استخدم الحيثيون الموارد الدفاعية للجبال، بنوا مدنهم على الصخور ومنحدرات الوديان. قاموا برفع صخور ضخمة على ارتفاع وصل إلى عدة مئات من الأمتار. حفروا ثقوبًا في الغرانيت الصلب وبنوا جدرانًا سميكة على طول المنحدرات الشديدة. لم يكن حرفيوهم أقل مهارة من بناة الأهرامات المصرية بأي حال من الأحوال. كانت المدينة محاطة بسور حجري كبير يصل طوله إلى خمسة كيلومترات.

أعجوبة هندسية حقيقية، محفورة. بنيت المنازل والساحات والمعابد والأسواق والقصر الملكي على مساحة تزيد على 160 هكتارًا، وهي أكبر بكثير من مساحة طروادة القديمة أو أثينا.

كانت المركز الديني والإداري والثقافي للعالم القديم، التي على الرغم من بعدها وصعوبة الوصول إليها زارها العديد من الأجانب. للمدينة طبقتان، سفلية وعلوية، تحتويان على أرشيفات وترسانات ومعابد ومساكن لكبار الشخصيات ومستودعات طعام تخدم المملكة بأكملها.

الحيثيون شعب محارب، لذلك بنوا مدينتهم بحيث يتمكن كل ضيف من مشاهدة معالمها وفهمها. على فترات قصيرة، بنوا أبراج مراقبة ضخمة بارتفاع يصل إلى عشرين مترًا وكذلك شيدوا أنفاقًا سرية للمحاربين. كان للمدينة ثماني بوابات محصنة محمية. أولئك الذين عاشوا خارج الأسوار أووا إلى الداخل خلال فترات الخطر. كان نظام الأمن قاسيًا لدرجة أنه في الليل لم تغلق البوابات فحسب، بل زودت بتروس لمنع عدو أو جاسوس من الوصول إليها أيضًا. هذا ليس كل شيء؛ شيدوا كذلك سور حماية آخر يمر عبر المدينة بأكملها، فاق سماكة الأول الخارجي. وصل عدد سكان المدينة إلى خمسين ألف نسمة، وقد بنوا عاصمتهم على فترات استمرت لعدة قرون. يكمن اللغز الحقيقي في كيفية تمكن الحيثيين من إنشاء إمبراطورية ضخمة حقيقية انطلاقًا من هذا المكان البعيد، واللغز الأكثر غموضًا: أين وكيف اختفى أهل هذه الإمبراطورية بسرعة، تاركين وراءهم آثارًا قليلة بشكل مدهش. عثر العلماء على أشياء ثمينة قليلة جدًّا في حاتوسا، على عكس عواصم الممالك العظمى الأخرى. ومع ذلك، فإن الكنز الحقيقي الذي عثروا عليه لم يكن ذهبًا، ولكن خمس مكتبات تحتوي على ثلاثين ألف لوح محفوظة بعناية من دون أي تلف.

كشفت الألواح تاريخ هذه المملكة، وحكاية استراتيجية عن كيفية التحول إلى مملكة عظمى. شكل الانضباط والخوف سر هذه المملكة. نُظمت كل تفاصيل الحياة الحيثية، من معايير العمل في أراضي الدولة ودفع الضرائب، إلى السلوك الشخصي والزواج والحياة الجنسية. كل انتهاك كان يقابله عقاب شديد، ودونت جميع العقوبات على الجرائم بالتفصيل، ولتحقيق الطاعة الكاملة، استُخدمت الطقوس الدينية التابعة لمنظومة معقدة من الآلهة، كل منها يؤدي دوره في نظام العقوبات القاسي، لكن القسم الرئيس كان مخصصًا لطاعة الملك.

بنى الحيثيون آلة حرب فعالة للغاية، أوجدوا تسلسلًا هرميًا صارمًا في الجيش، كان على الجميع الإبلاغ عن أي أمر وعن بعضهم بعضًا. قاتل أفضل محاربيهم على العربات، التي كانت السلاح الأكثر تقدمًا في العالم القديم. تميزت العربات الحيثية عن المصرية على سبيل المثال، في تحويل محور عجلتيها إلى المركز. سمح هذا بتحسين التوازن، وكان بإمكان عرباتهم أن تحمل ثلاثة محاربين بدلًا من اثنين.

كانت خيولهم تتغذى بطعام خاص، وتلك التي تصاب بوهن كانت تذبح. تشهد كل من مصادر الحيثيين والوثائق من الحضارات الأخرى أنه على مدار عدة قرون، غزا الحيثيون العديد من الشعوب المجاورة. بعد ذلك، بات الصدام مع قوة عظمى أخرى، أي مصر، أمرًا لا مفر منه. رسمت مدينة قادش السورية الحدود بين الإمبراطوريتين. هناك، في سبعينيات القرن التاسع عشر قبل الميلاد نشبت واحدة من أكبر الحروب في العالم القديم، حيث قاتل أربعون ألف جندي على كل من الجانبين.

من المثير للاهتمام أن عواقب هذه المعركة شكلت أولى مظاهر الدعاية السياسية، لأن كلا الجانبين أعلنا عن نفسيهما منتصرين أمام أبناء الوطن وأحفاده. على الرغم من أن أيًّا من الطرفين لم ينتصر في الواقع، إلا أن قادش ظلت للحيثيين. في الواقع، انتهت المعركة باتفاقية السلام نفسها، التي صيغت بعدة لغات، وحددت مناطق النفوذ في الشرق الأوسط.

حوفظ على هذه الاتفاقية في مصر أيضًا، على الرغم من أن جدران أبو سمبل مغطاة بأوصاف ورسومات لمعركة الفرعون المنتصر في قادش. لسوء الحظ، تربص عدو خطير جديد بالحيثيين بعد معركتهم الكبرى تلك، فقد حملوا الوباء مع الأسرى إلى عاصمتهم. حصدت الجائحة في غضون سنوات قليلة أرواح ما يقرب من نصف سكان المملكة. ومع ذلك، ليس الأعداء ولا الوباء ما تسبب في انهيار مملكة الحيثيين واندثارها.

لسنوات عديدة، ظل لغز اختفاء الإمبراطورية العظيمة من دون حل. حتى الآن، مع نشر مئات الدراسات، بالكاد رُفع الحجاب عن الفصل الأخير من تاريخ الحيثيين. بحث العديد من المؤرخين عن نوع الكارثة التي ابتلى بها هذا الشعب، إلا أنهم لم يجدوه. كان أحد أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام في السنوات الأخيرة المعبد السري في قلب حاتوسا، الذي كانت جدرانه مغطاة بالهيروغليفية، وهو نص حيثي آخر عكف العلماء على دراسته. في المحصلة، فككوا رموزه، وقد ساعدتهم الهيروغليفية التي رفعت عنه حجاب السرية قليلًا، على الرغم من بقاء العديد من الأسئلة من دون إجابات. لم تُدمر الإمبراطورية بسبب الوباء، ولا بكارثة طبيعية رهيبة، ولا غزاها الجوع، ولا أي عدو خارجي قوي، ولكن بسبب الحرب الأهلية، والصراع الأهلي بين أفراد العائلة المالكة. لم تتهاو أسوار حاتوسا، لكن الحرب الأهلية دمرت أسس نظامها. استمرت الحرب الداخلية لعدة أجيال، وكانت حدتها تتنامى فأدت إلى انهيار الإمبراطورية الصلبة العظيمة.

ماذا حدث في آخر أيام حاتوسا؟

لم تعطنا الهيروغليفية إجابة عن هذا السؤال.

على الأرجح، غادر الحيثيون عاصمتهم. قاموا بذلك بتؤدة وفق خطط مدروسة مثل كل ما فعلوه. لهذا السبب، في المكان، لم يعثر المنقبون على الكنوز الموصوفة في الألواح والوثائق الأخيرة، ولم

يُعثر على نهاية القصة. تفيدنا في الشق المسكوت عنه من تاريخهم آخر الألواح والرسوم الهيروغليفية الموجودة، بالإضافة إلى آثار للتاريخ المتأخر لهذا الشعب.

بالطبع كان هناك أيضًا غزاة خارجيون، "شعوب البحر" الغامضون الأقوياء، وكانت هناك أيضًا ممالك لاحقة أنشئت لعدة سنوات، حيث تألفت الطبقة الكبيرة الحاكمة من النبلاء الحيثيين أنفسهم. ومع ذلك، فإن سر "الخروج" الجماعي للسكان من حاتوسا، إلى أين ذهبوا وأين وجدوا موطنًا، لم يُحل بعد...".

أخذت نفسًا آخر.

- تاراس، لماذا تحتاج إلى معالجة موضوع كهذا؟ بحثك جيد، لا بأس.

- أهو بهذا السوء فعلًا؟

- كما تعلم، إن أي اكتشاف، على سبيل المثال، في الفيزياء والكيمياء لا يقوم به هواة بمفردهم، لكن في علم التاريخ، يعتبر أي شخص نفسه متخصصًا قادرًا على فتح أعين العالم على شيء ما. حتى كونك مؤرخًا لا يسوغ ذلك لأن هذه ليست منطقتك. ربما البحث ليس سيئًا بالنسبة إلى تلاميذ المدارس، ولكن بالنسبة إلى شخص يعرف بعض المعلومات على الأقل عن هذا. انظر، أنت تنشر نسخة شائعة من تاريخ الدراسة، ويبقى ما هو أكثر إثارة للاهتمام وراء الكواليس. على سبيل المثال، في رأيي، استخف بدريش غروزني بتأثير اللغة الحيثية القديمة على اللغات السلافية الأولى، فبمقارنة الروابط اللغوية معها يمكنك تصحيح بعض الترجمات التي توصل إليها. هذا لا يعني أن حجم اكتشافه قد تضاءل لكن يمكننا قراءة النصوص بشكل مختلف، بل وحتى الحصول على صورة مختلفة تمامًا عن حياة الحيثيين ورؤية تطور مختلفة للأحداث التاريخية. الآن عن موقع حاتوسا. يبدو أنها كانت في مكان غير مريح بالفعل لكن المنقبين عثروا على بقايا عدة مطاحن، بما في ذلك مطاحن مائية، في مكان قريب. أي إنه قبل خمسة وثلاثين قرنًا، كان مناخ هذا المكان مختلفًا نوعًا ما، وكانت الموارد المائية المتاحة تسمح بتشغيل عجلات تلك المطاحن؛ لذلك قد تتصدع نظريتك القطعية. كانت للإمبراطورية الحيثية ثماني لغات مختلفة وعاش فيها ثمانية شعوب مختلفة على الأقل. لغة واحدة منها فقط كانت للحيثيين. بالإضافة إلى دور الأوبئة التي ذكرتها في تدمير الإمبراطورية، وغزو شعوب البحر الإخائيين بأسلحة حديدية جديدة، هناك أمور لم تُبحث بشكل كافٍ لاستخلاص استنتاجات لا لبس فيها. وهكذا فإن إعادة التوطين الجماعي لسكان حاتوسا في فترة قصيرة موجودة بالفعل، ومع ذلك، فإن الدراسات الحديثة في كيليكيا القديمة وبامفيليا تلقي الضوء جزئيًّا على عملية إعادة التوطين تلك. كما يشكل التعرف إلى الحيثيين في الكتاب المقدس مجالًا منفصلًا في هذا المبحث. هناك العديد من الألغاز في هذا الموضوع.

- أفهم كل هذا، لكنني أفضل كتابته. أنت تتحدث عن عمل الهواة أما أنا فمؤرخ على الأقل. بالنسبة للغموض الذي يحيط بالعاصمة المهجورة، فقد أثبت يورغن زير وأندرياس شاشنر بشكل مقنع أن الحيثيين غادروا مدينتهم بشكل جماعي، فعلوا ذلك عن قصد، وتوجهوا إلى مكان ما قبل أن يسيطر عليها العدو. أنت تعرف.

إن الاهتمام بهذا الموضوع آخذ في الازدياد، وأنا شخصيًّا أود أن أرى أطلال حاتوسا.

- حاتوسا. -قلت بتنازل أكثر- لقد شاركت في الحفريات ثلاثٍ مرات هناك في ضمن بعثات دولية.

صدقني، هذه المنطقة، يبدو أن هذه المدينة تشع إلهامًا، إنها حقًا مركز طاقة، تجبرك على التفكير في العودة إليها مرارًا وتكرارًا.

- لم أكن أعلم أنك مهتم أيضًا بالعلوم الباطنية.

- الباطنية، لا بالتأكيد. إنها مبالغة! عندما تزورها، ستشعر بتلك الطاقة بنفسك. يبدو أنه ليس سرًّا بالنسبة إليك أن المرض وبعض المشاكل النفسية قد تداخلت مع عملي البحثي، إنهم يتحدثون عن الأمر من وراء ظهري.

- سيد أنطون، عيناك مشرقتان. يبدو أن كل هذا له معنى شخصي للغاية بالنسبة إليك.

- لا، تاراس، إنها حياتي فقط. ربما شكل هذا البحث فصلًا في كتاب قدري. بعد قراءة الفصل اقلب الصفحة.

- ولم عليك أن تقلب الصفحة؟

٨. أندريه

وفي غضون أسابيع أعلنتهما إحدى المؤسسات الرسمية المدنية زوجًا وزوجة على الملأ. أدى الزواج بطريقة ما إلى إخماد كل تلك الفوضى التي سادت في روح أندريه ما أعطاه هدوءًا وثقة مذهلين، بغض النظر عن أن مستقبله لم يكن أقل غموضًا من أي وقت مضى. انتهت فترة تدريب ليزي، وكان من الضروري بالنسبة إليها سلوك أحد الطرق الملتوية نحو المستقبل، كانت الطرق كثيرة وكلها غامضة. للمرة الأولى في حياته، سمح أندريه لشخص آخر باتخاذ قرار مصيري يتعلق به. قبل عرض زوجته بمرافقتها إلى وطنها على الفور. على الرغم من أنها كانت ترى أن مستقبلها في القارة الأمريكية، في الولايات المتحدة أو كندا، لكن رحلة العودة هذه بدت منطقية لما تحتاج إليه من وثائق وتأشيرات وتحت تأثير أمور بيروقراطية أخرى. كان الأمر يتعلق بعودة مؤقتة وتطوير استراتيجية حياة جديدة.

في المحصلة رأى بازيف إفريقيا للمرة الأولى في حياته. تفككت جميع التصورات المسبقة والكليشيهات المتعلقة بها تمامًا، كما لو أنها كانت عبارة عن بدلة طفل ضيقة جدًّا يرتديها مراهق سمين. وصلا إلى الجزء الشرقي من القارة السمراء في موسم الجفاف، في منتصف يوليو. هناك تطابق كامل بين اسم الموسم ومسماه. بعد رحلة جوية شاقة، استقبلهم مطار نيروبي الدولي والمدينة التي تحمل اسم "بوابة إفريقيا"، بسحب كثيفة من الغبار، وفي الواقع، كانت تماثل لندن الغارقة في ظلمة الضباب.

قضيا الليلة الأولى في المكان شديد البرودة لدرجة أن ارتداء مثل معاطف من جلد الغنم والقبعات الدافئة كان ضروريًّا، وكان على الزوجين الوصول إلى مقصدهما عن طريق شركات الطيران وسيارات الأجرة المحلية، وتجاوز حدود تلو حدود. نظر أندريه إلى الحياة المحلية باهتمام، ولم يكن لديه أدنى فكرة أنه سيبقى في هذه القارة لفترة طويلة، إن لم يكن لبقية حياته. بعد بضع سنوات فقط، عندما أتيحت فرصة السفر والتجول في أقصى المناطق النائية في إفريقيا التي لا يراها السياح، شعر بالتنوع الرائع لهذه الأرض وعاش حياتها بالفعل. وفي ذلك الوقت، في غضون ساعات قليلة في فترة استراحة بين رحلتين، جرته ليزي إلى متحف السكك الحديدية المليء بمختلف القاطرات البخارية الغريبة، على سبيل المثال، كانت هناك عربة سُحب منها أسد من آكلي لحوم البشر كان قد التهم ضابط شرطة، ولأن أندريه يحب جميع أنواع الشرطة في مختلف البلدان بشكل كبير، جعل الأسد فيما بعد العلامة التجارية لشركته.

كما قاما بزيارة المتحف الوطني والمحفوظات الوطنية المثيرة للاهتمام، والأكثر إثارة للدهشة كان التناقض بين صور أوائل القرن العشرين لكيكويو بانتو الفخور، وبين بُنى المواطنين الحاليين قصار القامة الذين يرتدون سترات باهتة ومهترئة وقبعات البيسبول، وهم يحتشدون بالعشرات في أقبية قذرة تسمى "بارات". ومع ذلك، كانت هذه الانطباعات الأولى فقط، وإن لم تكن ممتعة للغاية، وبعد ذلك شهد تناقضات مختلفة الأنواع، كما لو أن جميع تناقضات الأرض اجتمعت في هذه القارة، فتجدها مبعثرة في حال من الفوضى. فسيفساء من الغابات الاستوائية، والسافانا، والأدغال، والبراكين، المرتفعات والصحاري المنبسطة، كما لو أن أحد شخصيات روجر جيليازني تلاعب بانعكاسات الضوء، وبعد ذلك عندما تعب ترك هذا العمل على حاله ولم ينهه.

كانا يقتربان من مقصدهما: منزل عائلة ليزي. وهنا تغيرت المناظر مرة أخرى، امتدت الجبال المنخفضة والوديان نحو الأفق، مغطاة بحقول محروثة. كانت الحقول ترتفع أحيانًا إلى أعلى القمم. أدهشه أن يعمل الفلاحون المحليون على قطع أرض تكاد تكون عمودية. امتدت البساتين الخضراء متجاورة مع السهوب والغابات، محتلة مساحات شاسعة من قاع بحيرة كبيرة، جفت خلال العصور الجيولوجية، تكاد تشبه المناظر الطبيعية الأوكرانية المألوفة لولا تلك البراكين الخامدة في الأفق. صحيح، ما بدا من بعيد كقطيع من الأغنام اتضح عن قرب أنه قطيع من الفيلة الإفريقية، إلا أن ذلك لم يفسد انطباع القرابة بين هذا المكان وأرض بلاده المألوفة.

أخيرًا، وصل الزوجان مع غروب الشمس إلى مطار مدينة فيرمريتز الصغير، وهي مستعمرة ألمانية سابقة أذهلت أندريه بشوارعها النظيفة وكنائسها وأبنيتها المستطيلة، كما لو أنها نقلت بسحر ساحر من مكان ما على شواطئ بحيرة كونستانس أو موريتز إلى هنا.

استقبلهما في المطار أحد أشقاء ليزي -لوي لاتاتا- الذي قادهما، بعدما طافوا حول المدينة قليلًا، إلى موييبو سالكًا الأوتوستراد بسرعة فائقة، وهو أمر نادر جدًّا في هذا الجزء من إفريقيا. كان لدى ليزي ثلاثة أشقاء وثلاث شقيقات. بالنسبة إليها كان شقيقها الذي استقبلهما الأذكى والأقرب إليها عقليًّا. بشكل عام، كانت عائلتها، وفقًا لمعايير موييبو العائلة الأكثر ثراء.

موييبو ليست مثيرة للإعجاب. تصطف على جانبي شوارعها المركزية مبان شاهقة، ومتاجر عصرية، ومكاتب حكومية، ومتاحف، ومطاعم، ونواد ليلية، وما إلى ذلك. خلف تلك الشوارع ضواح مغبرة يعمها الفقر. الشيء الوحيد الذي أدهشه وجود عدد كبير من المساجد والمعابد الهندوسية، ما جعله يذكر نفسه أحيانًا أنه في إفريقيا وليس في آسيا. بشكل عام، كان هناك الكثير من الهنود في المدينة. كانوا يشاركون في أعمال تجارية كبيرة وصغيرة، خدموا في الشرطة، كانوا مسؤولين ومحامين وأطباء ومصرفيين. أجابت ليزي عن سؤال أندريه المحير، ففي نهاية القرن التاسع عشر، أحضر مئات آلاف الهنود لبناء خط سكة حديد عابر للقارة؛ لأن السكان المحليين لم يعهد إليهم بمثل هذه المسألة، وهؤلاء هم أحفادهم أولئك، إذا جاز التعبير هم "ملح الأرض"، ومحرك تنميتها يقومون بجميع أنواع التعهدات.

صمم العديد من الأحياء البيضاء لتكون منفصلة، إلا أنها لم تكن بيضاء بالكامل، بل كانت متنوعة، غنية، ومناسبة إلى حد ما لحياة كريمة. في هذه الأحياء "البيضاء"، عاش الزنجي المهيب ذو الشعر الرمادي والد ليزي، مع عائلته في ذلك القسم من المدينة إلى جانب عائلات من جنسيات مختلفة. خلال فترة الثورة والحرب التي تلتها، والتي استمرت إلى ما لا نهاية في إفريقيا، شغل الوالد منصبًا بارزًا نوعًا ما. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، وبما أنه لم يُسجن أو يُعدم رميًا بالرصاص، كفاه الوقت كي يزود الأسرة بمنزل وبالعديد من قطع الأراضي الشاسعة خارج المدينة، وكذلك أمن فرص التعليم في الخارج لمن رغب في ذلك من أولاده.

في منزل الوالدين، رحب الجميع بأندريه بصدق ودفء، ولكن مع بعض الحذر. جاءت الأسرة بأكملها لمشاهدة الصهر الأبيض بالتزامن مع كل ما كان يجري في البلاد في ذلك الوقت.

-بوانا أندريه- بطريقة غير متوقعة تمامًا، قدم بازيف نفسه، ولم يكن يعرف بعد أنه سيغدو "بوانا" مدى الحياة.

قوبل رفض الزوجين للعيش مع الأسرة بالارتياح، كما أدرك أندريه لاحقًا. ليس بسببه على الإطلاق، ولكن بسبب استقلالية ليزي وشخصيتها الحازمة، التي كان الجميع يخشاها.

كانت هدية زواج ليزي مفاجأة أيضًا، حيث أصبح أندريه بفضلها مالكًا لعشرات الهكتارات من الأرض بعيدًا جدًّا عن المدينة، في التلال الخضراء على حدود المحمية. تقع العديد من القرى المحلية، بما في ذلك تلك غير المتحضرة جدًّا، على حدود تلك الأراضي، وقبل عشر سنوات قامت عشر عائلات ببناء منازلها في أراضي أندريه الحالية بإذن من والد ليزي، وكي يتمكن أفرادها من البقاء هناك، كانوا بحاجة إلى موافقة من البوانا الذي انتقلت ملكية الأرض إليه.

علم الزوجان بكل هذا في غضون ساعة وبعد غداء صغير غادرا إلى مكان إقامتهما. هكذا بدأت حياة بازيف الإفريقية.

٩. أنطون

صعدت طبقة واحدة لأهنئ زميلي وصديقي نزار. كان يكبرني بثماني سنوات. ترقى في مسيرته الأكاديمية، فأصبح رئيس قسم منذ عدة سنوات، إلا أن ذلك لم يؤثر على علاقاتنا الودية، وعلى الرغم من أن لقاءاتنا العادية كانت نادرة خارج العمل إلا أن احتساء الكونياك معه كان متعة وبهجة حقيقيتين.

لم يكن نزار في مزاج جيد ذلك اليوم. قام -وإلى جانبه طالب في الدراسات العليا- بقص شيء ما ولصقه، فبدوا مثل صبيين صغيرين في روضة أطفال.

- يوم سعيد، إن كان يمكننا أن نصفه بالسعيد أصلًا. أعاننا الله. ما هو الشيء الممتع الذي يقوم به الأستاذ هنا؟

- من الأفضل ألا تسأل. كثيرة هي الأشياء الحمقاء، إلا أن هذا يحتل أعلى المراتب بينها.

- ربما تحتاج إلى استخدام كلمة "اللانهائية" هنا، للحصول على مكافأة من ملكة الثلج، ومع ندرة الثلج أو الجليد، يمكن للمجلات الأكاديمية أن تحل محلهما؟

- لا، الأمر أبسط من ذلك بكثير، كما تعلم، يعقد قسمنا مؤتمرًا لمناسبة الذكرى المئوية لميلاد فارلييف. أنت لا تقرأ الإعلانات، وهو مؤتمر دولي، أي بمشاركة روسيا وبيلاروسيا وكازاخستان ودول البلطيق على الأقل. وجدنا المال ووزعنا المواد في الوقت المناسب للافتتاح.

- تهانينا! لم يحدث هذا في السنوات الثلاث أو الأربع الماضية، إذا لم أكن مخطئًا، إذ تصدر المواد عادة بعد نحو عام من اختتام مؤتمر كهذا.

ألقى نزار نظرة فاحصة على طالب الدراسات العليا، فسحب رأسه إلى كتفيه وحمل المقص بحرص أكبر.

- هو كذلك، ولكن هناك مشكلة معينة...

- ما الأمر؟

- تعلم أنه عليك دائمًا أن تفعل كل شيء بنفسك. يقول البعض إنه سيفعل كذا وكيت ببساطة ولا يفعل شيئًا. أحببت كلمات مديرنا: لا يمكنك أن تفعل كل شيء بنفسك، ثم لماذا لا تلقي المهمات على عاتق القسم؟ أعهد إلى شخص أن يقوم بأمر صغير ما، فما النتيجة؟ لقد شاهدت ما الذي حصل في المؤتمرات السابقة. لا توجد صورة لدينا لفارلييف. طبعًا توجد صورة له معلقة في الممر بين الصور، وقد أرسلته ليصورها كي نطبعها على غلاف كتيب المؤتمر –أومأ نزار برأسه إلى طالب الدراسات العليا– إلا أن الأبله صور صورة شخص آخر وطبعناها. لم أتحقق من الأمر، ونائب المدير غير مبال، والآخرون كذلك، كما ترى الأمر لا يعنيهم. وهذا، نعم، رأى لحية ونظارتين والتقط الصورة. اللحية والنظارتان أشياء ضرورية.

بدأ الضحك يخنقني.

- نعم، لم لم يناسبك؟ لديك هنا في الصورة اللحية الصغيرة، لديك النظارتان. ماذا تحتاج أيضًا؟ من

يتذكر شكله أصلًا؟

- المسألة ليست بهذه البساطة -تنهد نزار- لو أن هذا الأحمق صور تلك الصورة على يسار فارلييف لقضي الأمر. ذاك أيضًا بلحية ونظارتين، ولا أحد يتذكر حقًّا من هو، لكن هذا إلى اليمين، إذا نظرت إلى الجدران ستراه أمامك تحت النجمة المضيئة، وهو أحد مؤسسي معهدنا. سيتعرف عليه أي شخص. لا نقود لدينا لإعادة طباعة غلاف كتيب المؤتمر، ولا يوجد وقت. وأحتاج إلى لصق الصور الآن حتى يقل عدد الأشخاص الذين سيضحكون عليّ على الأقل. من الجيد أن هذا الأحمق فكر في حل هذه المشكلة بطريقة ما، وإلا كنت سأقتله.

- جئت لأدعوكما إلى معرض الكتاب. اندلع الضحك.

- عن أي معرض تتحدث! خلال خمس عشرة دقيقة لدينا اجتماع موسع للقسم، ثم علي حضور مناقشة أطروحة. بالمناسبة، هل ستأتي؟

- ولم علي ذلك؟ وأنت أرسل طالب الدراسات العليا الثاني، نيكيتا. ليزيد من عدد الحضور.

- السيد نيكيتا لم يعد طالب دراسات عليا، أنت متخلف عن الزمن. إنه ليس مؤرخًا مثلك ومثلي فحسب، بل شخص مهم للغاية أيضًا، ونحن نفتقده. لقد دافع عن أطروحته في مولدوفا منذ شهر، ليست أي أطروحة بل دكتوراة، ولا يوجد مرشحون لها هناك.

- إذًا الأستاذ نيكيتا هو الآن دكتور في التاريخ، مثلك تقريبًا. هل ستمر؟

- يا لها من آخرة -زمجر الأستاذ- أعتقد أن اللقب الأصلح له مدرس القرية. وهل أنت بحاجة إلى وجودي؟

- لا أحد يرغب بذلك. -تنهد نزار- فرضوا علي طالب دراسات عليا من مصر. ينبغي الالتزام بجميع الإجراءات الرسمية وتخطيها بسرعة؛ لأنه يدفع بالعملة الصعبة. تعال ولو لخمس دقائق. إذ لن يحضر أحد منكم بالطبع.

- أأذهب أنا أيضًا؟ -سأل الطالب بحذر-.

- ماذا؟ قصها بسرعة! –صاح به نزار-.

انكب الطالب على المقص وعمل بمهارة أكبر.

١٠. أندريه

تغير مفهوم الحياة مرة أخرى؛ اختفت تلك الثواني الثمينة الوامضة في تيار الوقت السريع، وارتد الوجود فجأة بطيئًا ساكنًا يمضي على مهل. في البداية، شعر أندريه كأنه سمكة ملقاة على الشاطئ، يلهث طالبًا الهواء ولا يمكنه التكيف مع محيطه، ثم ساد السلام، وجد فرصة لإعادة قراءة كتابه المفضل الذي طلبه إلى مويبو عبر الإنترنت، وعاد للاستماع إلى موسيقاه المحبوبة من جديد، وبات يستمتع بمشهد الوادي وقت غروب الشمس.

يعتقد أندريه أنه وليزي محظوظان. عكرت الأحداث العاصفة صفو إفريقيا كلها على مدار العقود الخمسة الماضية، أو ربما استمرت الفترة لأكثر. بطبيعة الحال، لم تسلم هذه المنطقة أيضًا. كل من دعمهم الاتحاد السوفيتي السابق وأطعمهم، و"اختاروا طريق التنمية الاشتراكية" عانوا من المشاكل والمصائب. كان من المستحيل تخيل الأمر.

تبين أن "المناضلين من أجل الحرية" الذين رعاهم الشيوعيون هم دكتاتوريون دمويون دمروا الحجر والبشر، ولم يتوانوا عن فعل أي شيء من أجل الحفاظ على سلطتهم المطلقة فوق ركام بلدانهم المدمرة، كما تبين أن بعضهم كان من أكلة لحوم البشر بالمعنى الحقيقي للكلمة. بالطبع كان من المستحيل إضفاء الطابع المثالي على البلدان التي سارت في الاتجاه المعاكس، فالتجارب الفرنسية في رواندا شاهدة على ذلك، لكن الحياة الحديثة فيها على الرغم من كل أوجه القصور، في تناقض صارخ مع تلك التي كانت المدعومة من الشيوعيين. هكذا كانت الحال مع موطن ليزي. بعد سلسلة من الحروب والثورات، حوفظ على التراثين الإنجليزي والألماني وعززا هنا، وكانت لهما تداخلات ضئيلة نسبيًا في النسيج الاجتماعي.

بطريقة أو بأخرى، كانت البلاد ديمقراطية، جرت فيها من وقت لآخر انتخابات نزيهة ولم يقم القادة بضرب مواطنيهم بقبضاتهم على أعضائهم التناسلية بسبب وجهات نظر سياسية مختلفة، كما يعيش فيها الكثير من البيض، الذين لم يقتلوا بسبب لون بشرتهم وظلوا محترمين مقدرين يمارسون أعمالهم التجارية، بالإضافة إلى الهنود الذين حملوا معهم نكهتهم الخاصة وطريقة عيشهم.

بالطبع، كان عليه التعود على أسلوب حياة مختلف والتأقلم معه. اكتشف أين يمكنه المشي وأين لا يمكنه، وماذا يأكل ويشرب، وميز بين الحشرات والزواحف الخطرة وسواها، وما شابه. على الفور اضطر إلى التلقح في إحدى عيادات مويبو الخاصة، وكان عليه مرة واحدة في الأسبوع ابتلاع مجموعة من الحبوب الوقائية.

ومع ذلك، اعتاد بسرعة على كل شيء. كان سعيدًا بأن المنزل الجديد يقع على سفح جبل وكان يشبه في العديد من ميزاته الظروف المعيشية في موطنه الأصلي أوكرانيا. لم يكن في غابة رطبة أو صحراء ساخنة. زرعت الأراضي المحروثة بالذرة والقمح، وكانت الأبقار الحدباء تسرح في المراعي. بالطبع كان هناك موسم ممطر وحرارة دورية، لكن اتضح أن مخاوف أندريه بشأن الحياة في ظروف مختلفة تمامًا كانت أمرًا مبالغًا فيه، بالإضافة إلى ذلك، اعتبر الزوجان منذ البداية، أن الاستقرار في هذه البقعة من الأرض مسألة مؤقتة.

بصفتها امرأة من السكان الأصليين، أخذت ليزي على عاتقها مهمة إدارة وتنظيم الحياة اليومية

التي لم تتغير معالمها هنا منذ مئتي عام. شعر أندريه كأنه زعيم مستبد ينظر من عليائه إلى الخدم في المنزل. عاش حياة يمكن للزوجين تحملها مقابل ثروة توفرت بالمبالغ المالية المتأتية من تأجير الأرض. سرعان ما اعتاد بازيف على الغياب شبه الكامل للوجوه البيضاء من حوله؛ عاش على إيقاع جديد.

تعرف بازيف هنا على ليزي جديدة، الحبيبة المستبدة القادرة على اتخاذ القرارات بسرعة وبناء حياتهما وسط عالم محلي صغير، بحيث يكونان محور الاهتمام، وقد نجحت ليزي في ذلك، واندهش أندريه بها بما لا يقل عن اندهاشه بنسختها الأوروبية.

كانت السنة الأولى سنة الحياة الممتعة. سنة سعيدة، كأنها مكافأة ميتافيزيقية للأعصاب المتلفة، والصحة والأوهام، وبعد ذلك بدأ الملل يتسلل. القدر الذي كان يدير مصير أندريه نال قسطه من الراحة. ارتاح من دوامة الحياة السريعة، وبات مستعدًّا لإنشاء حبكات جديدة.

منذ الشهر الأول، وقع بازيف في حب الرحلات الطويلة بالسيارة إلى سفوح التلال. في البداية، بناءً على إصرار ليزي، رافقه لوي لاتاتا، الذي كان مرشدًا وحارسًا في آن. بعد ذلك، مع اكتساب الخبرة صار يتخلى شيئًا فشيئًا عن مرافقه.

في أحد الأيام كان عائدًا من رحلة وتوجه إلى قرية صغيرة ليملأ خزان السيارة بالوقود، وهي قرية تقع على أرضه ووجدت بفضل إحسان حميه. أنشئت قبل عشر سنوات من وصول الزوجين إلى إفريقيا، حين قررت العديد من العائلات، بسبب نقص الأراضي الصالحة للزراعة في ديارها والصراع مع الزعيم المحلي الذي تجبر عليها للانتقال إلى سفوح الجبال على بعد أربعين كيلومترًا. في ذلك الوقت، كان والد ليزي قد استمع إلى نصيحة استثمارية ومُنح الإذن بحيازة الأرض لاستصلاحها، بشرط تأجيرها للزراعة الحقلية والرعي. وكان عليها نحو ثلاثين منزلًا، بدأ عددها يزداد بمرور الوقت. ربط ممر ترابي هذه المزرعة بالطريق الالتفافي، وبدأ المستوطنون يعيشون حياة يومية مريحة، بعد ذلك، انضم إليهم لاجئون من الدول المجاورة، وكان بعضهم مغامرًا ومتعلمًا، وتضاعف عدد المنازل.

ظهرت بنية تحتية بسيطة هناك: متجر ومحطة وقود وحانة وحتى شيء يشبه نادي القرية فيه صالة سينما. حصلت المستوطنة الصغيرة على اسمها وبدأت في النمو متضخمة مع التقاليد والتسلسل الهرمي الاجتماعي. كانت من الأماكن الأولى التي حل فيها كاهن، وبعد ظهوره أنشئت كنيسة صغيرة قبل ثلاث سنوات.

على ما يبدو كان ذلك في الوقت المناسب، فالمبشرون المسيحيون هم أول من وصل إلى هذه المنطقة، على عكس مقاطعة مويبو المجاورة المسلمة بالكامل، ساد المسيحيون هنا، وكانت عائلة ليزي منهم. حظي والد ليزي باحترام خاص بصفته الوالد المؤسس. الاحترام نفسه حظيت به ابنته وزوجها الأبيض. حملت المستوطنة اسم أونداندا.

أثناء ملء خزان الوقود كان أندريه ينظر حوله.

على عكس معظم القرى المجاورة حظيت هذه القرية بمبنى دائري يسمونه الكولا، وقد بنيت "أحياؤها" مستطيلة على طول الطريق الرئيس. يمتد سور من الحجر الرملي بعيدًا عن محطة الوقود، وقد علقت عليه جرار. خلفه، أعمق بقليل، بعيدًا عن غبار الطريق، تتناثر حدائق منمنمة

تخفي أكواخًا بيضاء ذات أسطح من القش. وحدها ظلال أشجار الباوباب وتلك الأشجار الشبيهة بالصبار تتناقض مع المناظر الطبيعية الخلابة، لكن السنط الشائك والعرعر لا وجود لهما هنا كي يكتمل المشهد الذي يذكره بالوطن.

كانت الشمس في طريقها للراحة مضيفة نغمات ذهبية للشفق.

بعيدًا عن مركز القرية بقليل، كان نحو عشرين من السكان المحليين يحتفلون بشيء ما أو يستريحون بعد العمل. من حيث كان يقف، لم يكن بإمكان أندريه أن يشاهد سوى جزء من حلقة كبيرة ضمت موسيقيين يحملون الطبول وشيئًا يشبه القيثارة ذات الأوتار الثمانية. لم تكن الآلات الأخرى مرئية لكنها كانت مسموعة. التقطت أذناه بعض الإيقاع المرتبك الغريب المتقطع الذي أجبر العديد من الأشخاص على الرقص بالتناسق مع الموسيقى. انتشرت في رأسه لازمة غبية: "سيارة جديدة، زوجة جديدة، بلد جديد...". قاطعه عامل محطة الوقود مارو:

- مئتن وخمسون راندًا، بوانا.

هذه سمة أخرى من سمات الحياة هنا، فمعظم الناس يتداولون هنا بالراند جنوب الإفريقي، وهي عملة تحظى بالاحترام في جميع أنحاء إفريقيا، مشتقة من الاسم المختصر لسلسلة جبلية فيها رواسب ذهبية، وكان من دواعي سرور أندريه أن سعر صرف الراند مقابل الدولار تذبذب في تزامن غريب مع الهريفنيا الأوكرانية، وتكاد العملتان تتساويان في القيمة؛ لذلك لم يكن من الصعب على الأوكراني أن يعتاد على العلاقات التجارية المحلية وأسعار السلع. أخرج محفظته، سأل:

- بم تحتفلون، ألديكم عيد؟

- لا، هكذا نعيش هنا، بوانا. سنكون سعداء لرؤيتك في الكولا.

١١. أنطون

- طالب دراسات عليا من مصر! ما الذي أتى به إلى هنا؟ لماذا؟

- السيد هاني شفيق رمضان شخص محترم جدًّا في القاهرة. لديه مصنعا تعليب، ونصف تل من المنازل، وشركة نقل صغيرة، وفندق في دهب. كل ما ينقصه هو الشهادة الأكاديمية؛ من دونها لا يستطيع استكمال برنامج حياته، فمستوى احترام مواطنيه له أدنى قليلًا مما يريد.

- لكن لماذا أوكرانيا؟

- لأن السيد هاني يعرف كيف يحسب المال. من بين جميع الدرجات الأكاديمية الممكنة التي تعترف بها بلاده، وجد أن الأوكرانية أرخص. بالإضافة إلى ذلك، في روسيا المجاورة، عليه أن يدفع مقابل خدمات الأستاذ المشرف، وهو سيكتب عنه الرسالة بالفعل، أما هنا فيكفي أن يشكرك؛ لأن الإدارة ستجبرك على القيام بذلك مجانًا.

- إذًا لديه أطروحة في الاقتصاد؟ فما شأن معهدنا به؟

- لا، لا تشغله النظريات الاقتصادية، لا ينجذب إليها، هو كممثل للطبقات المستغلة ورأس المال الموروث، يفضل شيئًا تاريخيًّا وثوريًّا، مثل الأقلية الشيوعية الأوليغارشية لدينا.

- وما هي المادة العلمية الجديدة التي سيقدمها في أبحاثه؟

- "دور رشاش الكلاشنكوف في الحركات الثورية العالمية". لا تنصدم. أنا أمزح. بالمناسبة، هل رأيت عميلًا سريًّا خارقًا من قبل؟

- فقط في الأفلام.

- التشبيه مناسب له تمامًا. ليس أوروبيًّا أو أمريكيًّا. إنه فخور أيضًا بإتقان لغتنا الأم في وقت قصير. شخص موهوب جدًّا.

كان نزار على حق. بدا المرشح لنيل درجة الدكتوراة مثل جاسوس من منغوليا، كما تخيلته، ابتسم بانضباط ودهاء لجميع الحاضرين، لكنه كان يشعر بتوتر داخلي. صافح بعض الأساتذة المهمين، وسألوه شيئًا بأدب.

- نعم. - أجاب بلكنة أوكرانية ثقيلة.

- منذ متى أنت في أوكرانيا؟ - انضممت أيضًا إلى المحادثة.

- نعم. - ابتسم محاوري ابتسامة واسعة.

- كم عدد الأعمال المنشورة لديك؟

- نعم.

- منذ متى وأنت تعمل على أطروحتك؟

لكثرة ما كان يبذل جهدًا، بدأت ابتسامة الطالب الأجنبي تشبه ابتسامة القط شيشاير[6].

- نعم. – تشوش، واستدار بفخر.

6 القط شيشاير: من شخصيات قصة الكاتب والعالم الإنجليزي تشارلز لوتويدج دودسن (١٨٣٢-١٨٩٨) المعروف باسم لويس كيرول «أليس في بلاد العجائب» (١٨٦٥).

١٢. أندريه

كان هذا أحد الأماكن المفضلة لدى أندريه. كان قريبًا جدًّا من منزله. زاره بانتظام واعتبر مكانه الأثير المقدس. مسار متعرج بالكاد يُرى يلتف ليصل إلى شلال صغير. مسار نصف دائري ينتهي عند صخرة كبيرة يتدفق منها الماء. يسير التيار بضعة كيلومترات، يتلاقى مع تيارات ثانية وثالثة، لتشكل معًا لاحقًا رافدًا صغيرًا للنهر العظيم ذي شلال العملاق الغريب.

أما هنا فكان كل شيء صغيرًا ودودًا. كما هي الحال دائمًا لسنة خلت، غادر أندريه السيارة وسار على قدميه. توقف فجأة، حيث يكون وحيدًا لا شيء حوله باستثناء الماء والطيور الغريبة، لا شيء يكسر الصمت، لكن لم تكن تلك حاله. تغير المشهد على الفور. ألفى على الصخرة الكبيرة المنفردة وحولها على العشب عشرات الشبان السود صامتين بشكل غير طبيعي وبلا حراك.

حمل كل واحد منهم رشاش كلاشنكوف المألوف لدى أندريه منذ أيام القسم العسكري في الجامعة، وكانوا يصوبون الفوهات نحوه، يستهدفونه مباشرة. استدار ببطء شديد فرأى شخصين ظهرا بسرعة البرق ودون ضوضاء خلفه، بسحر ساحر سدّا طريق العودة عليه. كان كل هذا غير واقعي لدرجة أن أندريه أغلق عينيه، ثم فتحهما ليتأكد إن كان ما رآه سيختفي أم لا. لم يختف شيء، وبدأت المفاجأة تتحول إلى رعب حقيقي.

أصدر أحد المهاجمين أمرًا بلغة حلقية. فتش آخرون أندريه بحرفية، اختفى الشخصان اللذان كانا خلفه، وبعد دقيقة كان في سيارة سارت على ممر مغبر. استغرقت الرحلة نحو ساعتين وانتهت عند معسكر مخفي بذكاء، يتكون من عدة مقطورات وخيام وثلاث ناقلات جند مدرعة سوفيتية الصنع.

فتشوه بحرفية مرة أخرى وأرسل إلى الخيمة الكبرى، حيث جلس رجل ذو بشرة داكنة يتراوح عمره بين خمسة وأربعين وخمسين عامًا يرتدي ملابس مدنية، لا يمكن الشك في انتمائه إلى الطبقة العسكرية. كان يجلس بين حراسه. لا شك أنه كان سيد كل هؤلاء الرجال هنا. وجد أندريه نفسه جالسًا على كرسي قابل للطي، وكانت كل العيون معلقة عليه. تحدث الرجل باللغة الحلقية نفسها فنهض زنجي ضخم البنية ووقف بينهما ليترجم. أكثر ما أدهش بازيف في تلك اللحظة سماعه اللغة الأوكرانية الصافية.

- أولًا: اسمح لي أن أعتذر عن هذه الطريقة غير المعتادة في إيصالك إلى مكان اللقاء هكذا. الحقيقة أنني موجود في هذا البلد بشكل غير رسمي واعتقدت أنه من الضروري عدم إبلاغ السلطات بهذا؛ لذا أجد نفسي مضطرًّا لتطبيق بعض الإجراءات الأمنية. آمل ألا تكون مستاء للغاية من هذه المعاملة. أؤكد لك أنه لن يلحق بك أي ضرر، وبعد محادثتنا ستُعاد إلى المكان الذي نقلوك منه.

نهض الرجل العسكري من على الطاولة، وسار بضع خطوات مقدمًا كفه العريضة لبازيف. آنذاك توتر الحراس. كان بازيف في حيرة من أمره، فمن الواضح أنه كان يجب أن يعرف من هو. صافحه آليًّا. على الفور، أتى رجل بصينية مزينة فوقها زجاجة من الويسكي وأنواع من الطعام، ملأ كوبين واختفى.

قبل الأسئلة، قال السيد الودود، مشيرًا إلى الرجل الضخم، الترجمان الأمين:

- هذا الرجل القدير حاصل على ثلاث شهادات جامعية في الاقتصاد من موسكو وكييف والسوربون. ويتحدث سبع لغات بطلاقة. مهاراته مفيدة، لماذا لا نستغلها؟ خاصة أن كل ما لدينا في بلدنا من المهارات، والثروة، والحياة نفسها، ندين به للبابا، وأحيانًا يسمح البابا لنا باستخدام شيء منها. بدا لي أنه سيكون من دواعي سروري أن تسمع لغتك الأم هنا. بالمناسبة، اسمح لي أن أدعوك إلى العشاء لأثبت لك أنني شخص مضياف ولأشرح الغرض من لقائنا. إنهم يرتبون كل شيء في مكان قريب.

كان السؤال الوحيد من بين العديد من الأسئلة التي احتدمت في رأسه، والذي تمكن أندريه لسبب ما من الإفصاح عنه، هو:

- ما اسمه؟

- مارميديوك - أجابه الرجل الضخم، بعدما استأذن رئيسه بالإجابة فسمح له.

كانت أوكرانية مارميدوك مذهلة. إذا أغمضت عينيك، سيبدو لك أنك تسمع كييفيًا عاديًّا. ربما كانت لغته أدبية بعض الشيء تخلو من الغاليسيزم[7] والسورجيك[8]. لم أستطع أن أصدق أن المترجم قد درسها، ولم يتواصل بالأوكرانية منذ الطفولة.

أعطى الرجل العسكري انطباعًا بأنه يتمتع بشخصية كاريزمية، قوية، متسلطة وذكية. جعل بازيف يجرب العديد من الأطباق الشهية مع الويسكي والبراندي، واستمر في المحادثة:

- لا تعذب نفسك بالتخمينات لماذا أنت هنا! ستكون المحادثة موجزة للغاية. لقد أذهلني ظهورك في هذه المنطقة؛ لأنه بطريقة ما يؤكد خططي الطموحة. أنا أعرف كل شيء عنك تقريبًا. عن عملك في أوكرانيا، أصدقائك، مشاكلك، الزوجة السابقة والحالية، وأشغالك. أنا لست رئيس جهاز المخابرات في بلدي، أنا جنرال في الجيش، لكن أحظى بفرص كافية وإمكانات غير محدود تقريبًا للوصول إلى المعلومات المختلفة. عندما هناك -أشار إلى مكان ما من خلف ظهره- بدأت حرب التحرير، التي رعتها بلادك، قاتلتُ في خط المواجهة وحققت كل شيء بفضل عزتي وشجاعتي. أنا صريح جدًّا معك، وسأسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية وأعتمد على صدقك. هناك خطط معينة، يجب أن يكون أندريه بازيف الآن أحد روابطها. سأكون أكثر صراحة: إذا تدخل أندريه بازيف نفسه لعرقلة هذه الخطط، حتى بأي أمر تافه، فسيختفي ببساطة. ربما لن يعود من نزهته المعتادة في التلال التي يحبها كثيرًا، أو ينتهي به الأمر بطريق الخطأ بين فكي تمساح إهمالًا منه، لكن في المقابل، إن ساعدني في خططي سيغدو شخصًا ثريًّا، مستقلًّا عن رفقة زوجته ووالد زوجته المارق، الذي يحتاج إلى الحفاظ على رفاهية عائلته الكبيرة. هل يجب أن أستمر؟

- نعم. اختفى الخوف في مكان ما، وبدأ أندريه في احتواء أطراف الموضوع بشكل لاإرادي.

شعر بموجة دافئة قوية في الداخل، تلك التي عادة تسبق اتخاذ بعض القرارات المصيرية، وشهدت الموجة على اقتراب تطور في لعبة القدر. خطوة مذهلة مقبلة. عندما تتغير الحياة بوضوح مرة أخرى ولن تكون كما كانت من قبل. أدرك بازيف أن الشخص الذي أمامه يشبهه إلى حد بعيد، وعلى الرغم من كل شيء، شعر الرجلان بنوع من التفاهم الروحي بينهما، وأحدهما يشبه الآخر

في الروح، في الأفكار والأفعال، ولا يشبههما أحد ممن كان حولهما. بدا أن الجنرال، وهو يحدق باهتمام في عيني أندريه، شعر بالشيء نفسه.

لماذا أصبحا واثقين من أن قوتهما معًا لن تتضاعف فحسب، بل ستصبح أكبر بعشر مرات.

- حسنًا، فوق هذه الجبال تقع بلادي غير السعيدة. قيل عنها الكثير في العالم، ما الذي يجب تصديقه، وما لا يُصدق. هنا -كما قلت- كل شيء يخص البابا، بما في ذلك حياة المواطنين. يحدد البابا أسعار السلع في المتاجر اليوم، وما إذا كانت البضائع ستوزع مجانًا، ومن سيكون غدًا مالك هذا المنزل أو ذاك أو قطعة الأرض تلك، يُكتب عن ذلك في الصحف ويُتحدث على التلفاز، كل شيء يخص مواطني البلد يحدده، بل حتى من سيعتبر اليوم جيدًا أو سيئًا. البابا يحدد كل شيء. أعتقد أن هذا الوضع ليس جديدًا عليك؛ لأن بلدك عانى ما عاناه.

مرة أخرى، أومأ أندريه برأسه موافقًا.

- لم أكن مقربًا من البابا عندما استولى على السلطة، فأنا صغير جدًّا على ذلك، واتضح أن هذا أفضل. لذلك، لم يختف أعداء البابا فقط ولكن أيضًا أقرب الأصدقاء كذلك، عن طريق الصدفة، ماتوا بنوبة قلبية، في حادث سيارة، أو ببساطة بسبب الشيخوخة. هذا ما لدينا، لكن البابا يبلغ من العمر عتيًّا، ربما لم يكن من الضروري طرد المزارعين البيض من الأرض؛ لأن هذا أدى إلى الجوع، والجوع في البلاد يمنع البابا من اتخاذ قرارات مصيرية ويصرف الانتباه عن انتكاسات الدولة. أنا لا أنتقد البابا لا سمح الله! أنا أتحدث عن شيء آخر، فكل شخص حي لا بد أن يموت يومًا ما.

أنا الآن شخص مقرب من البابا، لكنني لست الأقرب. لدي فرصة ضئيلة لأن أصبح البابا الجديد، ومن سيصير البابا وكيف ستتغير البلاد؟، لا يسعنا إلا أن نخمن ذلك الآن؛ لذلك أحتاج إلى الاهتمام بمستقبلي ومستقبل المقربين مني.

- لكن لماذا الآن؟ لماذا لم تعتنِ بهذا الأمر مسبقًا؟

بدأ بازيف يفهم إلى أين تتجه المحادثة.

- هذا سؤال وجيه. الحقيقة هي أنه على مدى السنوات الست الماضية كان جميع أفراد شعبي تابعين لرئيس الشرطة السرية ولم أتمكن حتى من اتخاذ خطوة بسيطة، مثل زيارة هذا المكان، من دون أن يعلم. وفي هذا الربيع، حدث شيئان: أولًا: قام البابا بتقسيم إداراتنا، بحيث أصبحت الشرطة السرية أكثر نفوذًا، وثانيًا: تبين أن رئيسها كان عدوًّا سريًّا للبابا وعوقب على ذلك. فحرر يدي قليلًا.

- أفهم.

بالنسبة لأندريه لم يكن هناك شيء غير عادي في ذلك.

- هاتان الدولتان بناهما الرجل الإنجليزي وكان رجلًا عظيمًا. لقد صدقوه وكان كفؤًا لتلك الثقة. كنت أعلم أن الدولة الغنية فقط يمكنها أن تكون قوية. ما كنا نحتاج إليه بالضبط هو البناء والدعم، وكان يعلم أنه يجب منح الجميع فرصة للثراء على مستويات مختلفة. علم أن الشخص الثري لا

يفكر في الحروب والثورة. وأخيرًا، كان يعلم أن كل ما يكسبه الفرد تقريبًا سيبقى في البلاد وسيصبح ملكًا لقيادتها. هنا يتذكرون كل هذا جيدًا، أما هناك فنُسي، كما كان لديه أمر آخر، إذ كان يعلم أن تنفيذ خططه يجب أن يُعهد به إلى البيض فقط. على الأقل القيادة والتنفيذ.

- هل أنا الرجل الأبيض الذي سيفي بخططك؟

- لقد جلبك الحظ إلى هنا. أحتاج إلى شخص يمكنني الوثوق به. الشخص الذي لا يشارك بشكل مباشر في الصراع القبائلي، لا جذور محلية لديه، وليست لديه حاجة إلى إطعام قبيلته. شخص جريء وصادق إلى حد ما، قادر على أخذ زمام المبادرة والرد إذا لزم الأمر. سيكون مسؤولًا عن أموالي وخططي. أندريه بازيف، هل أنت مثل هذا الشخص؟ لديك دقيقتان للرد.

كان رأسه يدور. حانت تلك اللحظة، التي تكررت كثيرًا في حياة أندريه، لحظة اتخاذ القرار. لقد حدث هذا ألف مرة. يختفي في تلك اللحظة الحساب البارد ويرفض الاحتكام إلى المنطق، ولا يبقى لديه سوى العواطف والحدس. لم يندم بازيف أبدًا على مثل هذه القرارات العفوية، فقد كان دائمًا وحده. ينبهه الطنين في أذنيه إلى ارتفاع في ضغط الدم، لكنه كان مألوفًا وممتعًا.

- لست بحاجة إلى دقيقتين. أنا مثل هذا الشخص. فقط لدي الكثير من الأسئلة.

- حسنًا. من الغريب ألا تكون لديك أسئلة. كل شيء في وقته. أعتقد أنك تفهم أنك ستكون تحت السيطرة. أنصحك بألا تخدعني، وفي النهاية لن تكون هناك حاجة لذلك. ثروتي ستزيد من دخلك. سنسير بالتوازي. هذا كل ما أردت أن أخبرك به الآن. مارميديوك سيكون معك، يمكن الوثوق به. من اليوم فصاعدًا، سيكون لديك في أوندا ندا شخصان آخران. نتحدث عن العمل في المرة المقبلة.

نهض ومد يده القوية إلى أندريه مرة أخرى. انبعثت رائحة الكولونيا الفرنسية التي كان بازيف يعرفها جيدًا، وأحبها، فتبادرت إلى ذهنه علامتها التجارية.

- يبدو أنك لا تعرفني. أنا الجنرال ليسترونغ توندا. أرك لاحقًا!

7الغاليسيزم (الهاليسيزم): لهجة غرب أوكرانيا، التي انتشرت في إمارة غاليسيا التاريخية التابعة للإمبراطورية النمساوية المجرية من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين. (تنقسم اليوم بين أراضي غرب أوكرانيا وبولندا).

8سورجيك: حرفيًّا، الخبز المصنوع من أنواع مختلفة من الحبوب، أي من خليط. اصطلاحًا، لهجة محكية شائعة في أوكرانيا ومولدوفا تختلط فيها عناصر من اللغتين الروسية والأوكرانية. تختلف هذه اللهجة عن الأوكرانية الأدبية، ويرى اللغويون أنه من المستحيل رسم خط فاصل بينها وبين اللهجات الأوكرانية المحكية.

١٣. أنطون

افتُتح المعرض. لم يُقم حدث بهذا الحجم منذ فترة طويلة. مجتمع النشر كله هنا. لحسن الحظ، كان عدد الزوار كافيًا، حتى أكثر من اللازم، إذ كان من الضروري التدافع في ممرات ضيقة. يبدو أن موسيقى الصباح التي أتت من التلفاز عمت المكان كله هنا. كانت إيقاعية ومتشنجة وفي الوقت نفسه حزينة بعض الشيء. مزيج غريب من الألحان. بدا وكأن تيارًا كهربائيًّا يتدفق منها يغزوني ويرج عمودي الفقري كله.

كان علي أن ألتقي ببعض المعارف قبل بدء البرنامج المخطط له، إذ لن أتمكن من التحدث إليهم بعد نهايته. في جناح العروض الأدبية، رأيت روبن في حالة قريبة من الغيبوبة التامة. تولد لدي إحساس أن ما كان يحدث في تلك اللحظة بعيد كل البعد عن دنو لحظة حفل العرض الافتتاحي بمشاركة فيلسوف أوكراني بارز.

- هل ما زلت تعرفني؟ سألته.

- أبك شيء، أنا في أفضل حال! لدي حدثان آخران. يجب أن أنتهي من كل شيء وأنضم في الوقت المناسب إلى المأدبة، هناك أيضًا خطاب ونخب إلزامي. أو ربما اثنان. أو أكثر. رأيت أوليغ وسلافا، كان الجميع يسأل عنك. يقولون أيضًا إن بازيف قد وعد بأن ينضم.

- لا يهمني. هل ستعيش حتى المساء؟

- المشكلة ليست. -انحنى نحوي وتحدث هامسًا. خرجت منه روائح باقة قوية من عدة أصناف من النبيذ والعديد من ماركات الكونياك مخلوطة برائحة الفودكا العادية- الآن لدي خطاب، لقد وعدت، لكنني أعمل مع هؤلاء الشباب للمرة الثانية، وهل يمكنك أن تتخيل، لقد نسيت تمامًا، أهم من تلك المؤسسة المعادية للسامية، أو بالعكس الأخرى المؤيدة للصهيونية؟ من يمكنني أن أسأل عن هذا حتى لا ينزعج أحد؟

- واجه مشاكلك. إنه الشيء نفسه في كل مرة. اكتب النص وأنا متأكد من أن خطابك سيكون لائقًا كما هي الحال دائمًا. ألا يستطع فيلسوفنا البارز روبن مخورادزه التعامل مع مثل هذه المشاكل؟ لا أحد يستطيع أن يتكلم أفضل منك لمدة ساعة وألا يقول شيئًا على الإطلاق في الوقت نفسه.

أبعدني أوليغ فوروني من دار "نورماتكس" عن هذه المحادثة المفيدة. كان مخمورًا أيضًا، ومع ذلك كانت لديه مهارة مختلفة، لم أره مطلقًا سكران بغض النظر عن الكمية التي شربها. كان في الوسط "يرقص حول المؤلفين". كان هؤلاء المؤلفون يشبهون قططًا غبية واهنة من الضروري التحايل عليهم طوال الوقت، وإقناعهم، والتفاوض معهم، ومعاملتهم بهدوء. كان عمل أوليغ صعبًا يذكر بالعمل الحزبي الشاق في الحقبة السوفيتية، عندما كان من الضروري أن يُعل القلب من وقت لآخر.

- أنطون، سعيد برؤيتك. يقولون إن بازيف قد وصل ويريد رؤيتك. تخيل، لدي جلسة توقيع مع منصوروف بعد ثلاثين دقيقة، إلا أن الرجل لم يُحضر نسخ الكتاب من المطبعة حتى الآن، كما أن منصوروف ليس هنا. أين هو؟ لا أحد يعلم ما إذا كان سيأتي، بالإضافة إلى ذلك، لقد تأخرت وليس

لدي وقت لأي شيء. ودعنا نسيبتنا الآتية من كوستروما.

- أكان في وداعها أحد غيرك؟

- وكيف، تدافع جميع أفراد الأسرة الكبيرة إلى وداعها، حتى إن جدي ذهب على عكازيه. ربما أراد الجميع التأكد من أنها سافرت.

- وماذا، هل كل شيء آخر بخير؟ لا تخيفني!

- ليس جيدًا تمامًا. هاتان الفتاتان المؤلفتان تتشاجران، يجب أن أركض لتهدئتهما. تبكيان أو تتشاجران. إنه أمر سيئ. والسبب، كما هي الحال دائمًا. اشترى رواد المعرض ثمانية كتب موقعة لإحداهما، واثني عشر كتابًا للأخرى. سوف تقتلان بعضهما بعضًا. لماذا أتتا في الوقت نفسه؟ كنت قد فصلت بين حفلي التوقيع بساعة، وكان على الثانية أن تأتي قبل ذلك. ثم هناك منصوروف.

- يمكنني مساعدتك مع منصوروف كما تريد. من يعرف كيف يبدو؟ دعنا نجلس ونرتب الكتب عندما يأتي بها الرجل.

- فكرة جيدة، دعني أحل مشكلة حفل التوقيع ثم آتيك. – ابتعد بقلق.

رأيت صديقًا آخر للناشر؛ سألته عما إذا كان السادة أوكرانيو الشتات قد أنقذوه؛ نظر إلي بجدية شديدة، وقال:

- السادة المهاجرون لا يمارسون الهراء. إنهم يفضلون الشرب والأكل أثناء الحديث عن مصير أوكرانيا على شراء الكتب الأوكرانية، كذلك الصحافيون الذين يتميزون بمشاعر مبهمة يتدفقون إلى المعرض ويتناولون وجبة خفيفة في هذه اللحظة، أما الأشخاص محدودو الدخل فيشترون كتبًا عن أوكرانيا وتاريخها، مع أن ما جذبهم هو التفرج على أولئك السادة المهاجرين.

لفت نظري جناح ناشر آخر وأنا لطالما أحببت تعبير "المحيط المركزي". قسم محتويات جناحه على ثلاثة ستاندات وطاولتين، قسم الإيزوتيريك (على ستاند منفصل حتى لا يتقاتل مناصرو هذا العلم مع بقية الرواد)، ثم قسم الترجمة والفلسفة والتاريخ (مختارات من مجموعة متنوعة عالية الجودة بما فيه الكفاية)، ثم الأوكرانيات والعلوم الإنسانية، وإحدى وسبعين رواية وأخيرًا علم نفس الأعمال.

من المثير للدهشة أن كل قسم كان له معجبوه الذين لم يختلطوا مع الآخرين بطريقة ما. تمكن مدير الجناح من التواصل معهم جميعًا، وكأنه خبير مهم في كل مجال، وفي الوقت نفسه، لم يضرب أو يهن أحد أحدًا. هذا أيضًا نوع من الأناقة العالية.

لفت انتباهي كتاب مزخرف. كان مختلفًا تمامًا عن كل ما صدر منذ فترة طويلة لدرجة أنني أخذته بين يدي بشكل لاإرادي.

- جديد؟

رآني المدير وجفل:

- نعم. فلسفة. إلا أن المؤلف منحرف نوعًا ما. هو شخص محترم، ومع ذلك، بدلًا من صرف

الجهد على المحتوى، فإنه بذل قصارى جهده على التصميم. اثنا عشر خطًا مختلفًا في كتاب واحد، وعشرون طريقة تركيز على النص، وقد استخدم الخط المائل، والتسطير تحت النص. استخدم كل ما هو ممكن. كان يجلس أمام الشاشة ويقودنا أثناء إخراج الكتاب، "هذا الحرف أعلى وأكبر قليلًا! وهذا هو أصغر، أنحل، أرق، من فضلك". كان علينا أن نطرز الكتاب بصليب.

- ربما كان عليكم ذلك. هل الكتاب للبيع؟

- نعم. إذا لم يكن معروضًا للبيع، فمن كان ليقف وينظر هنا؟ تخيل، -لقد غير الموضوع- اليوم سيأتي رومان ساهيداتشني لمناسبة صدور كتابه الجديد.

- ومن هو؟ -تدخل قارئ قربنا-.

لم ينزعج المدير ولكن أوضح بقوة، كما لو أنه مريض وعليه القيام بذلك:

- كان السيد رومان سجينًا سياسيًا سابقًا وأسطورة النضال من أجل استقلال أوكرانيا. الآن -على الرغم من تقدمه في السن- لديه عقل حاد، كلمات بارعة ويؤلف كتبًا رائعة ها هي على الطاولة الآن. انظر، إن كنت مهتمًا يمكنك انتظاره والحصول على توقيعه.

- هل لديك داشلر؟ -قاطعته امرأة- يبدو أنه صدر عن داركم.

- بيعت النسخ الموجودة. خذي داني. إنه الشيء نفسه.

- زملاؤك من دار "ناديا" أصدروا كوركستون في ترجمة ساندوميرسكي. أتعرف ما إذا كان ساندوميرسكي نفسه؟ لأنهم ليسوا في المعرض. لا أحد لنسأله.

- بالطبع، إنه نفسه، ومن سيكون غيره؟

تقدمت منا قارئة، سألت:

- من هذا كوركستون؟

- أتعلمين، ليس لدي أي فكرة. سأقول أكثر، ليس لدي أي فكرة عن من هو ساندوميرسكي أيضًا،

- اسمع، كيف تقدر الكتاب قبل الطبع؟ من سيبيع ومن لا؟ ألا تخطئ في ذلك؟

- بالطبع أخطئ. لدينا هنا طبيب نفساني مشهور صدرت له ثلاثة كتب، ثم أحضر لي منذ عام عملًا جديدًا. تردد كثيرًا قبل أن يحسم خياره. فكر في علم النفس ثم دون دليلًا لإصلاح الثلاجات. اتضح أن لديه هذه الهواية. أنا بالطبع رفضت المخطوط فحمله وعرضه على "هامي". والآن هو من أكثر الكتب مبيعًا، ولا يزال علم النفس لدينا نائمًا على الرف.

جاء ناشري الثاني فانقطعت محادثتنا بحدة، ولم يدع المدير يكمل جملته. دفع الزائرين جانبًا. إذا حكمنا عليه من خلال اندفاعه والتعابير على وجهه، لم يكن في أفضل حالة مزاجية.

- أنطون، أين أنت؟ بالكاد وجدتك.

بصعوبة كبح جماح مشاعره، زفر، ثم تمكن من ضبط نفسه وكأنه على حافة هاوية، وصرخ:

- هل فقدت عقلك؟ كان من المفترض أن تيسر مناقشة على منصة التتويج في القاعة في الطبقة العلوية لمدة خمس دقائق!

ثم شدني من كمي وجرني وسط الحشد مثل قاطرة. آخر ما سمعته خلف ظهري صوت مدير "المحيط المركزي" يقول:

- كنت على يقين أن لديك مناقشة على المنصة!

١٤. أندريه

ومع ذلك، فإن المفاجآت في ذلك اليوم لم تنته؛ ما إن دخل أندريه إلى المنزل حتى صاحت به زوجته.

- أين ذهبت؟ لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟ كنت قلقة عليك. لدينا ضيف.

- ضيف؟ أي ضيف منهم؟ -دخل إلى القاعة.

- تعرفا، السيدة كاترين، موظفة جديدة في الملحقية الثقافية، وهذا زوجي أندريه.

نهضت لمقابلته امرأة سمراء قصيرة نحيفة، في الأربعين من عمرها تحدثت معه أيضًا باللغة الأوكرانية، لكنها لغة أبناء مهاجري الجيل الأول.

- كاترين آدمز. المعذرة، أتيتك كي أطلب شيئًا. مهمتنا هي فتح العديد من الفروع بالقرب من مويبو، لذلك أطلب موافقتك على وجودي والعمل في أونداندا، أنا واثنين من الموظفين الآخرين.

- وما هي طبيعة هذا العمل؟ -كان عقل أندريه مأخوذًا بحديثه مع الجنرال.

- آه، إذًا أنت لم تتعرف إلى البعثة بعد؟ هي منظمة خيرية. نحن نعلم السكان المحليين الإنجليزية والفرنسية، قواعد النظافة، نقدم التعليم الأساسي للأطفال، نحاول منع انتشار الإيدز، ونوفر الرعاية الطبية الأساسية، وأكثر من ذلك بكثير. نتصل عادة بالكهنة المحليين في الأماكن التي تنتشر فيها المسيحية.

- إلى الطاولة، أيها السيد والسيدة؛ لأن الطعام سيبرد، -تدخلت ليزي- نواصل أثناء العشاء.

هكذا ظهرت في حياته كاترين، حفيدة المهاجرين الأوكرانيين إلى كندا، كان اسمها أثناء طفولتها كاترينا سيمكو. ولدت في تورنتو، ولكن بعد تلقيها التعليم وحدوث بعض التغيرات في حياتها، قررت تكريس مصيرها للمهمة الثقافية. هجرها زوجها بسبب اختلاف وجهات النظر حول الحياة، نشأت ابنتها وذهبت في طريقها الخاص. جاءت السيدة آدامز إلى إفريقيا قبل عام وعملت في تلك السنة في مملكة ليسوتو في منصب ثانوي. كانت البعثة راضية عن عملها، واعتبر تغيير البلد وظهورها في مويبو نوعًا من الترقي الوظيفي.

عندما سمعت كاترين شائعات عن مالك أرض محلي جاء من أوكرانيا، اختفت على الفور مشكلة اختيار مكان للوظيفة الجديدة.

ازداد عدد سكان أوندادا بضعة أفراد، وازداد في مجتمعها عدد الناطقين بالأوكرانية. سألت كاترين بلهفة عن موطن أسلافها مسترسلة في ذكر كل الكليشيهات التي علمها إياها مدرسو الشتات. لم تتطابق أي من هذه القوالب النمطية مع الواقع، لكنها استجابت لرغبات وتخيلات المهاجرين السابقين وأبنائهم وأحفادهم.

وقد أضيفت ميزة جديدة أخرى في حياة أندريه وزوجته، فأقيمت حفلات العشاء المنتظمة وحفلات الاستقبال مرتين في الأسبوع، والمحادثات والأغاني الأوكرانية. اتضح أن كاترين كانت تعرف الكثير منها ويمكنها حتى تعليم بازيف تلك التي لا يعرفها. غنت جيدًا، وكانا يغنيان معًا دويتوهات

بشكل جيد. حدث ذلك للمرة الأولى، عندما فتحت ليزي الباب عن غير قصد فشاهدت جميع أفراد أسرتها منصتين، يستمعون إلى الأغاني الرنانة بالكلمات السحرية غير المألوفة.

وبعد أسبوعين تقريبًا، كان أندريه يقود سيارته في أوندا‌ندا، فسمع لحنًا مألوفًا ولد في السهوب الأوكرانية، جاء من جهة الكولا. لم يكن من السهل التعرف عليه لأن الإيقاع تغير، وأحيانًا تقطع تدفق الأغنية تمامًا، ثم اختفى فجأة، تاركًا الصوت منفردًا مع نجوم المساء، ثم دخل مرة أخرى مدعومًا بإيقاع خشن، فحدث انهيار، كانهيار جليدي صاخب شامل ينثر شظايا الأصوات. كان الإيقاع رائعًا. استمع بازيف إلى تلك المعجزة لعدة دقائق ومضى بهدوء، حتى لا يعكر صفو الغموض. فكر في نفسه: "ربما هذه هي الحياة حقًّا؟ سأضطر إلى الانضمام إلى الكولا". وبدا له أيضًا أنه من بين جوقة الأصوات كان يسمع صوت مارميديوك.

وفي غضون شهر حدث أمر مفاجئ آخر. عُين الأب تاراس، أي السيد تاراس أوبراين المتحدر من عائلة إيرلندية وأوكرانية من إثيوبيا، كاهنًا جديدًا في أوندا‌ندا. بالطبع، كان بالكاد يعرف الأوكرانية، لكنه انضم بحماس إلى العشاء وحفلات الاستقبال والمشاركة في أداء أغنيات أحد موطني أجداده.

- اسمعي، -التفت بازيف إلى ليزي- كيف يمكن لهذه الأرض الأجنبية الكائنة في نهاية العالم أن تجذب إليها ذوي الجذور الأوكرانية؟

أجابت بجدية:

- إنها ليست الأرض بل الأرواح المحلية. على الأرجح، بمجرد أن قام شخص أوكراني بعمل جيد لها، ترد له الجميل فتقوم بدعوة أبناء جلدته وجمعهم وحمايتهم.

- ماذا! أنت تمزحين؟ -تفاجأ بوانا من جوابها، ولم يفهم إن كانت تمزح أم لا.

١٥. أنطون

حفل عرض آخر في القاعة الصغيرة شبه المفتوحة. كنت أجتاز القاعة نحو المنصة، إلا أنني لم أستطع التوقف عندما رأيت الكتاب الذي يتمحور حوله العرض، إذ إنني أعرفه وقد أُهديت نسخة منه قبل أسبوع. قد تتشابه الآراء حول بعض الكتب، إلا أن هذا الكتاب تحديدًا حظي بتناغم داخلي معين، إذ كان من المستحيل ببساطة قول كلمة واحدة لطيفة عنه. كان سيئًا بالمجمل. شخصياته من الورق المقوى، حبكته شبه البوليسية تعل النفس، حواراته غير متوافقة وخطابه فظيع، على الرغم من جهود كبيرة بذلها المحرر. على ما يبدو، كان على المؤلف أن ينفق الكثير من المال لرؤية إبداعه مطبوعًا.

وجدتني مهتمًّا بما يمكن أن يقال هنا؟

تتطابق هيئة مؤلف هذا الكتاب تمامًا مع أفكاري عن مؤلف الكتب الأكثر مبيعًا من هذا النوع. جبينه ضيق، حاجباه كبيران فوق عينين صغيرتين، أذناه كبيرتان، يفتقر تمامًا لبصمة الذكاء على وجهه. تجد مكانها تعبيرًا عن الغباء القاسي والعناد.

وُصف حفل العرض بأنه مناقشة أدبية. ومع ذلك، ربما لم يجرؤ أحد من الكتاب، حتى المدافعين عن هذا النوع، على ضرب المعبود الجديد بسيف النقد الأدبي. كان جالسًا على كرسي، ينظر إلى الأمام قليلًا، كما لو أنه كان يحدق في ما وراء المكان، وقد رأى مستقبلًا مشرقًا وكان يتوقع حشدًا من المعجبين الذين تأخروا لسبب ما. بين الحاضرين كان رئيس تحرير دار النشر، ومدير المناقشة مدفوعة الأجر، وموظفة في دار النشر نفسها، كانت تستعد لبيع نسخ من الكتاب، وامرأة أخرى اتضح أنها زوجة المؤلف.

تنحيت جانبًا قليلًا حتى لا أشترك في المناقشة، لكني راقبت ما يجري باهتمام.

ثرثر مدير المناقشة العندليب وهو ينظر بعصبية إلى ساعته. من كلمته، علمت أن ستة وثلاثين شخصًا من المعجبين المدعوين ربما تأخروا قليلًا. لكنهم ببساطة لم يأتوا، وسوف يندمون بشدة على عدم حضورهم عند ولادة نجم جديد من المحققين الأوكرانيين. تباعًا أعطيت الكلمة لرئيس التحرير، والموظفة التي تبيع الكتب، وزوجة المؤلف، وأخيرًا الكاتب نفسه.

أشار الأول بإيجاز إلى ظهور جوهرة جديدة في مجموعة كتب الدار. أعلنت الموظفة بفخر أنها باعت كتابين موقعين اليوم. يبدو أن أحدهما كان محجوزًا لمدير الحفل. قالت الزوجة إنها تؤمن دائمًا بموهبة زوجها مهما حدث، ثم حلت وقفة ثقيلة، بدا أن الحاضرين يحاولون معرفة ما لا يجب الانتباه إليه. أخيرًا، وصلت الكلمة إلى المؤلف. انتزع ببراعة دفتر ملاحظات مجعدًا من تحت ذراعه وصرح: كتبت روايتي الأولى في الصف الرابع. ها هي! وفي هذه المناقشة الأدبية، أريد أن أوضح لكم جميعًا المسار من هذه إلى هذه! ـمنتقلًا من الدفتر إلى الرواية المنشورةـ.

صدمتُ، مشيت بهدوء، حتى لا أعرف كيف وصل إلى المرحلة الحالية. لم يخيب هذا المؤلف ظني. كان في انسجام تام مع عمله.

١٦. أندريه

سرعان ما وصلت الأخبار من الجنرال. تلقى بازيف خطابًا رسميًّا من مويبو فحواه أنه غدا مالكًا للأراضي المجاورة، وأن جميع الضرائب قد دفعت وأن وثائقها اللازمة باتت جاهزة. امتدت ممتلكاته بعيدًا في سفوح التلال متجاوزة المحمية، وبلغت مساحتها نحو عشرة أضعاف هدية زواجه بليزي. أخبر أندريه زوجته عن ليسترونغ توندا فلم توافق زوجها على دوره الجديد كوسيط لأهواء مسؤول من دولة مجاورة.

- إذا كنت تتذكر، فلن نمكث هنا لفترة طويلة. لا أريدك على الإطلاق أن تتورط في المستنقع وتغرق في الخلافات المحلية، والأكثر من ذلك أن تختار جانب شخص ما، كائنًا من كان. كلهم عناكب في جرة، ومن غير المعروف من سيلتهم الآخر. وبازيف الأبيض النشط والذكي وجبة دسمة. أو قطعة شطرنج قوية إلى حد ما يمكن التضحية بها في أي لحظة، حتى عن طريق الصدفة. أفضل أن أبقي هذه الوجبة اللذيذة لنفسي.

- كما تعلمين، هذه الوجبة ملكك بالفعل، وقد حسمت خياري. نحن لسنا غرباء عن الألعاب الخطرة، إلى جانب ذلك، ألم تذكري شيئًا عن الأرواح المحلية التي تدافع عن الأوكرانيين؟

- لا ينبغي المزاح حول هذه المسألة، فالأرواح حساسة للغاية. لا تغضب، دعنا نقف على أقدامنا قليلًا، ربما نترك ملكيتنا هنا لشخص ما يديرها، وننتقل إلى الولايات المتحدة أو كندا؟ هناك يمكننا أن نفكر في إنجاب طفل أيضًا، بالإضافة إلى ذلك، ليست كثيرة البلدان التي لن يبدو فيها زواجنا مزعجًا للسكان المحليين بطريقة أو بأخرى.

- أتعلمين يا ليزي، على الرغم من أن الأمر غريب إلا أنني شعرت مؤخرًا بأنني في موطني. لقد وقعت في حب هذه الأرض بصدق، ولا أريد أن أترك كل شيء ورائي، كما أنني أحببت ذلك الجنرال، ليس هناك الكثير من الناس مثله في العالم. ما الذي سيحدث بعد ذلك مثيرٌ جدًّا للاهتمام، ولا يتعلق الأمر بالمال، على الرغم من أهمية المال، ولكن بالعبّ من الحياة، إذا فهمتيني.

هزت ليزي رأسها. فهمت. كانت تعرف بازيف جيدًا، تعرف قلقه وعناده. وقد فهمت جيدًا أيضًا أن لا شيء يمكنها فعله. ومن ذلك اليوم فصاعدًا، يمكن أن تصير ظروفهما وعلاقتهما وحياتهما نفسها رهائن يتلاعب بها الجنرالات.

لم تنتظر التغييرات طويلًا. في أراضي أندريه البعيدة رأى الجنرال أن وقت النفط قد حان. هذه الأراضي الصخرية غير الصالحة للزراعة أو الرعي، لم تبق مهجورة لفترة طويلة. في مكان ما على أطرافها، سرعان ما ظهر معسكر لعمال النفط بمعداتهم وآلاتهم القبيحة. حتى والد ليزي زار المكان ليشهد تلك المعجزة، قال لأندريه بتمعن:

- كما تعلم، بوانا، هذا بالتأكيد ليس ضمن مجال اختصاصي، لكن لا يوجد نفط هنا، هذه ليست مصر أو الغابون. لدينا في هذا البلد النحاس فقط، ويُعرف كل شيء عنه: الموقع والكمية ومتى ستنفد. سأسمح لنفسي بتقديم نصيحة لك: أيًّا كان من ألهمك لهذه الخطط، فهو لا دراية له على الإطلاق. كل هذا هراء. منذ عدة سنوات، جرت أعمال التنقيب عن النفط في كل مكان ولو ظهر أي أثر له لكانت الحياة في هذه البقاع مختلفة تمامًا اليوم. بالإضافة إلى ذلك، لم يجد أحد الذهب،

ولا اليورانيوم، ولا القصدير. والبريطانيون على علم بذلك جيدًا. ولو وجدوا شيئًا، أي شيء لما رحلوا أبدًا، صدقني. -حدق في عيني صهره وهو يحاول فهم ما كان يحدث. ثم تنهد بشدة وأضاف:

- إذا كان هناك أي شيء، فإن الأرواح المحلية تخفيه جيدًا وقد لا تستهويها تجاربك.

- أنا أكثر خوفًا من أولئك الذين لم يصبحوا أرواحًا بعد. انتظر وشاهد.

قاما معًا بزيارة المعسكر وتحدثا إلى كبير المتخصصين الذي يدعى جوشوا بهاغال. وهو هندوسي في منتصف العمر، تميز بهدوء داخلي وصبر وبنظرة متغلبة على الحياة. لم يرفع صوته على عماله أبدًا، لكنهم كانوا خائفين منه إلى درجة الارتعاش. كان على جوشوا فقط أن يعبر عن استيائه بعينيه أو بحركة من كتفيه ليتحول العمال الكسالى والأغبياء بحضوره إلى نماذج للعمل الجاد والإبداع. لبعض الوقت تواصل كبير المتخصصين مع والد ليزي بلغته، قبل أن يودع أندريه ويغادر، وألقى أخيرًا نظرة فاحصة غير مفهومة على صهره.

مرة أخرى، تغير إيقاع حياة أندريه. من الصباح إلى المساء كان يختفي في الحفارة. كان الأمر ممتعًا. واتضح أن الأمر صعب للغاية، ويتكون من عدة مراحل. الأولى كانت عبارة عن أعمال تحضيرية، حيث قام العمال بتطهير وتسوية موقع البئر المستقبلية، حيث وفروا الكهرباء من خلف الجبال، وقاموا بما يسمى بـ "عملية الأدغال". كي لا يكرروا الأعمال التحضيرية عدة مرات، فكر جوشوا بحفر عدة آبار على مسطح واحد، ليس عموديًّا، ولكن تحت منحدر، من أجل الوصول على مساحة تحت أرضية أوسع. نفذت جميع مراحل التحضير والحفر من قبل متخصصين مختلفين بينهم علماء الزلازل. وقد استخدم الخبراء الحفارات المناسبة، وقسموا العمل بين التزويد بسوائل الحفر والقياس عن بعد، وشارك علماء الجيوفيزياء وغيرهم. كان العلماء والخبراء ينظرون بعضهم إلى بعض بازدراء، وكل واحد مهم اعتبر أن عمله هو العمل الرئيس. اكتشف بازيف الفروق بين مختلف الأنابيب، والضواغط والأغلفة والأسلاك وما شابه ذلك.

بالإضافة إلى التكاليف النقدية الضخمة، نشأت قضايا قانونية وتنظيمية، لكنها سرعان ما اختفت بعصا سحرية، ومن دون تأخير.

في غضون شهرين، التقى أندريه بالجنرال، الذي حضر إلى مويبو في عداد بعض الوفود العسكرية الأجنبية، لحضور أحد الاجتماعات الدولية. عقد اللقاء بين الرجلين لمدة خمس عشرة دقيقة تلقى فيه بازيف العديد من التعليمات، ثم ربت الجنرال على كتفه وغادر.

ذات مرة، خلال زيارته التالية للموقع، سقط بازيف تحت أمطار غزيرة. انفتحت الهاوية السماوية، واضطر للاختباء في خيمة مع بهاغال. كانت فرصة لبدء محادثة معه دون شهود ومحاولة الحصول على إجابات لبعض الأسئلة. قبل ذاك كان ينظر أحدهما إلى الآخر عن كثب لفترة طويلة، ونشأ بينهما نوع من الصداقة الحذرة، الممزوجة بالاحترام. سأله بازيف:

- سيد جوشوا، كم مضى عليك في هذا العمل؟

- أكثر من ثلاثين سنة.

- طوال هذه السنوات الثلاثين، لم يخطر ببال أحد أن يحفر بئرًا على هذا الجانب من الجبال، لكن

على حد علمي، لم يبحث أحد عن النفط هنا في دائرة شعاعها مئتا كيلومتر. ماذا تقول تجربتك، هل كان الجميع بهذا الغباء حقًّا؟

تنهد بهاغال مترددًا في الإجابة. ثم نظر باهتمام في عيني محاوره، وقال:

- بناء على تجربتي، لا يوجد شيء هنا على الإطلاق. أنفي المهني يصرخ بأن كل هذه الجهود تذهب سدى. إنها مضيعة كبيرة للمال والوقت والجهد.

- كيف؟ ما الذي دفعك للوصول إلى هذا الاستنتاج؟ أيمكن للمال حقًّا أن يجعل شخصًا مثلك يقوم بعمل لا معنى له ويستغرق وقتًا طويلًا؟

- من الأفضل ألا تسأل، يا بني، لن أجيب.

- حسنًا، على الأقل أعط تلميحًا!

تردد بهاغال. في النهاية قرر الإجابة:

- هل تتذكر تلك المرأة التي أحضرت إلى هنا قبل ثلاثة أسابيع لمراقبة الأعمال؟

تذكر بازيف ذلك المخلوق، أو على وجه التحديد ذلك الكائن؛ لأنه كان من الصعب وصفها بالإنسان. والبت فيما إذا كانت رجلًا أو امرأة لم يكن سهلًا. قصيرة، سوداء، منحنية قليلًا، عجوز، تبدو مثل رجل الثلج المقيت[9]، في صورة مصغرة، كما صور في مجلات الكوميكس. إذا حكمنا من خلال الملابس، وكذلك خوف العمال، كان هذا الكائن نوعًا من الشامان، ولكن عندما دار في خلد أندريه هذا الافتراض أحس أنه قد يُشعر الأرواح بالإهانة. "الشامان[10] شخص محترم للغاية، يتواصل مع الأرواح والأسلاف، أما روتانا هذه فسيدة السحر الأسود".

- كانت هي من وجه الجنرال للبحث عن النفط. هناك -من حيث أتت- تدور رحى حرب مميتة بين جميع أنواع السحرة للتأثير على البابا، وكانت روتانا الأكثر حظًّا بتدمير وإقصاء معظمهم، وقد تمكنت من تحديد المكان الذي تبحث فيه بالضبط عن النفط، وانتهى بها الأمر حقًّا تحت تلك الصخرة، على الرغم من أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا تحت أي ظرف من الظروف. هنا أيضًا، في هذا المكان، أراد الجنرال أن يسير على خطى البابا ويكرر النجاح نفسه في النفط. لا أصدق كل ذلك، لكن من يستمع إلي؟

9رجل الثلج المقيت أو المخيف، «يتي»: كائن خرافي يشاع بأنه يعيش في جبل إفرست والهيملايا وشمال الاتحاد السوفيتي السابق. يصور كوحش كثيف الشعر ذي جثة هائلة تشبه جثة القرد، وجهه أشبه بوجه الإنسان، لديه ذراعان طويلتان تصلان إلى ركبتيه، ويمشي منتصبًا على قدميه الضخمتين. تقول الخرافة: إن الإنسان الجليدي يهبط أحيانًا من الجبال كي يشن غارات على القرويين.

10الشامان (اسم مفرد وجمع في آن): سحرة دينيون لديهم قوة الشفاء والتغلب على النيران وتحضير الأرواح والتواصل معها. والشامانية ظاهرة دينية بدائية تتضمن جملة من الطقوس والممارسات والرموز، كانت منتشرة في أماكن مختلفة منها آسيا الوسطى والشمالية.

١٧. أنطون

بما أنني وعدت أوليغ بمساعدته اضطررت إلى زيارته. تبين أن الفوضى التي كانت سائدة انتهت. حضر أحد الطلاب، يبدو أن الأستاذ المشرف عليه أرسله، حاملًا من باب الخروج إلى دار نورماتكس صندوقًا من الكتب، ومن الجهة المقابلة وصل المؤلف منصوروف رافعًا أنفه بشكل مهيب.

علاوة على ذلك، بدت هاتان المؤلفتان اللتان خاضتا شجارًا منذ نصف ساعة تقريبًا مثل شقيقتين توأمين الآن، كأنهما كانتا تجالسان جدة وعدتهما بالكشف عن سر وصفة لإعداد نوع مميز من الكوليش[11]. يمكن للجدة الحكيمة أن تكشف لهما التفاصيل الدقيقة لتحضير الطبق، لكنها كانت تصغي بانتباه وهي تحمل نسخة من كتابي المؤلفتين على جانبيها. امتلأ الهواء وحكم بالموافقة.

داخل أحد الأجنحة الرئيسة، كان قد انتهى للتو حفل عرض كتاب جديد لإحدى أشهر المؤلفات الأوكرانيات، التي يُدعى أنها ملكة النثر الفكري. تناثرت كميات كبيرة من نسخ الكتاب على الطاولة. احتوى الكتاب على كل شيء: رحلات في التاريخ البطولي الأوكراني، والكشف عن الحياة الجنسية للشخصية الرئيسة، بعض المؤامرات الإنسانية الغامضة تتخللها صور غير مقنعة تجاه بعض المسؤولين العلميين. لقد اضطررت بالفعل لقراءة هذه القصة، وقفت بعيدًا ولم أرغب في لقاء الكاتبة، لكن لم أتوقف عن الاستماع إليها، فهي متمكنة من التحدث لساعات، وقد فعلت ذلك أفضل بكثير من الكتابة. حتى إنني فكرت في أن كلامها المتدفق، وخطابها الرائع، المليء بالإشارات الفكرية والاستعارات، يجب أن يسجله شخص ما. صدقني، كان أفضل مما تكتب.

ومع ذلك، لا حظ! انتهى العرض للتو، وحاصر الكاتبة حشد من الناس يرغبون في الحصول على توقيعها، معظمهم من الفتيات. عندما كنت محظوظًا بما يكفي للتقدم سمعت كلماتها الأخيرة التي كانت:

- حسنًا، هذا كافٍ بالفعل؛ لأننا الآن سنشرب.

11 كوليش: عصيدة شبه سائلة في شكلها التقليدي. تتكون عادة من جريش الدخن وشحم الخنزير، مع إضافة مكونات أخرى.

١٨. أندريه

انتهى وقت النفط فجأة كما بدأ. جاءت شائعات غامضة من دولة مجاورة بأن روتانا محتالة معروفة. و"الحقل" الذي اكتشفته يحتوي على خزانين من وقود الديزل يضخهما شركاؤها في أحشاء الجبل. اكتشف الأمر بسرعة، لكنه كان كافيًا لإرباك رؤوس الجميع. استمرت هذه الصفقة قرابة ستة أشهر، ما يدل على وجود شركاء في الدائرة المقربة من البابا. كان غاضبًا جدًّا لدرجة أن ردة فعله استمر ذكرها لسنوات عديدة. طارت الرؤوس، وصدرت عدة أحكام بالإعدام، لكن الساحرة نفسها تمكنت من الفرار إلى مكان ما.

ظهر مارميديوك مرتبكًا في منزل أندريه، وقال إن السحب تتكاثف فوق رأس الجنرال. يجري الأمن الشخصي للبابا سلسلة من الاعتقالات والاستجوابات من أجل الوصول إلى أوسع شريحة ممكنة من المسؤولين الذين تحدثوا ولو لمرة واحدة على الأقل إلى روتانا، من أجل تحديد المتورطين في الصفقة، كما أن ليسترونغ لم يفلت من الاستجواب.

- لا أعرف حتى كيف يمكن أن ينتهي الأمر في بلادنا، -كان مارميديوك صريحًا كما لم يحدث من قبل– ذلك يعتمد على مزاج المحققين والبابا نفسه، وقد تواصل السيد توندا مع روتانا عدة مرات، كما أنه ليس معروفًا ما سيقوله الآخرون أثناء الاستجواب؛ لأن كل واحد سيستغل هذه الفرصة لتصفية حساباته وشفاء غليله. أفهم ذلك جيدًا.

- مارميدوك، كيف بات لديك كل هذا الولاء للجنرال؟ - سأله بازيف، بعد صراحته معه.

- لقد درست في الخارج، وهذا يكفي في بلدي لأوصم بعدم الموثوقية، وقد يصل الأمر أيضًا إلى التعذيب والاتهام بتقويض أسس النظام. أنقذني الجنرال من عقوبة الإعدام عندما كان من الضروري تنفيذ خطة لفضح عملاء المخابرات الأجنبية؛ لأنه لا يمكن العثور على مرشح آخر لهذا العمل جيد مثلي؛ لذلك أنا مدين بحياتي له، وليس للبابا، مثل أي شخص آخر، -ابتسم الرجل بحزن- إلى جانب ذلك، بوانا، لقد شعرت به بنفسك يا له من شخصية غير عادية. أنا أعتبر أنه من السعادة أن أخدم شخصًا مثله.

على مدار عدة أيام، تواصل تدفق الأخبار عبر طرق سرية، وكانت على ما يبدو جيدة. إذ إنه بين المتآمرين الذين اعتقلوا وسجنوا وأعدموا لم يرد اسم الجنرال.

وبعد أسبوعين، في أراضي أندريه البعيدة مر موكب مألوف. بشعور مذهل ممزوج بالإخلاص والراحة صافح اليد السوداء القوية وامتنع قليلًا عن العناق.

- أنا سعيد جدًّا، سيدي الجنرال، أنت على قيد الحياة وبصحة جيدة!

- ربما يسعدني ذلك أكثر!

- من بين أمور أخرى، أحتاج إلى تعليماتك. ما الذي سنفعله مع تلك المعدات والتمديدات والعمال وكل شيء آخر؟

- فكرت في الأمر. لن ترى هؤلاء الأشخاص بعد الآن. الموقع فارغ.

- نعم، لكن سينهب الناس كل شيء عن آخره!

- لقد اهتممت بذلك أيضًا، لا تقلق. بينما نفكر في استخدام ناجح إلى حد ما لكل هذه الآلات، لدي خطة أخرى. على سبيل المثال، هل تحب قيادة السيارة والاستمتاع بالمناطق المحيطة؟

كانت الخطة هي جذب السياح إلى أرض بازيف الجديدة. لم يتطلب الأمر الكثير من المال للتنفيذ. تحد الأراضي محمية طبيعية كبيرة، حيث يرتاد العديد من الزوار الجانب الآخر. غيرت الرشى و"الهدايا" والترهيب الملطف طريق الوصول إلى المحمية، وأضيف المكان إلى الكتيبات الإعلانية، وأمكن استخدام الطريق الذي شق للوصول إلى موقع الحفر. أصبحت المعدات نفسها من أهم معالم الطريق. أولًا: لم تكن هناك نقطة نفط، وبالتالي كان كل شيء نظيفًا تمامًا، ثانيًا: في أي مكان آخر سيسمح لك برؤية هذه الأكوام من الآلات الصناعية، والتجول بينها، بل وحتى لمسها إن أردت؟ لذلك قامت فرقة عسكرية خاصة بحراسة الموقع وأنشأت منصات مراقبة.

قام فريق آخر ببناء أكواخ صغيرة خفيفة الوزن مزودة بالحد الأدنى من وسائل الراحة، وبجمال التلال والأنهار والشلالات المحلية لم يخدع أحد أحدًا، كانت مخزونًا هائلًا متاحًا من الجمال، كما أتيحت للزوار المهتمين بالإثنوغرافيا والحياة الأصلية الفرصة لإشباع فضولهم.

ظهرت جميع الوثائق والتراخيص والتصاريح اللازمة بسرعة مذهلة، مستحيلة لإفريقيا. كان على أندريه أيضًا أن يسافر ويبذل جهودًا للحصول عليها؛ لذلك اكتسب في هذا الوقت سمعة شخص لا يعرف المستحيل. تفاجأ بازيف ذات مرة بصفات الجنرال التجارية وفطنته:

- يمكن لأي شخص نجا في بلد مثل بلدك أو بلدي أن يتعامل دائمًا مع أي بلد آخر.

- لماذا تحتاج إلى كل هذا؟ العالم رائع، ربما تبدأ حياتك في مكان آخر؟

- العالم كبير ولكنه محدود، ولا أحد ينتظرنا في أي مكان. وجدت نفسك هنا، حيث العمل، والحب، والعيش. الأرواح المحلية ودودة مع الأوكرانيين، ابتهج.

أتى أندريه من يذكره مرة أخرى بالأرواح. ظهرت تلك الكائنات بعد شهرين، خلال موسم السياحة.

١٩. أنطون

بعد التحدث مع أوليغ، عدت إلى القاعة حيث رأيتها مقسمة بين داري "بلزا-ك" و"كارما-ن"[12]، وهما دارا نشر كان العداء بينهما مستفحلًا. ترددت شائعات أن الأخيرة تنتمي إلى الروس. كانت تصور إعلانًا لها فأجبر الزوار على الخروج من تحت الجدران زاحفين إذ سدت الكاميرات والمصابيح الممرات، ودهم شاب الإعلانات الشهير المستأجر ستاند دار النشر وهو يلوح بيديه بطريقة غريبة:

- كانت جميع الكتب رمادية وغير مثيرة للاهتمام إلى أن ظهرت "كارما-ن".

هذا الشاب دائم الظهور على شاشة التلفاز حيث يبدو عملاقًا وسيمًا، هو في الحياة الواقعية ضئيل البنية غير واضح المعالم.

جفل الزوار على جانبي مسرح التصوير، أما مدير "بلزا-ك" الذي تحول لون وجهه إلى البنجر (الشمندر) فكان يستشيط غيظًا شادًّا قبضتيه دون وعي، ينظر من القسم الثاني، حيث تم حظر إمكانية وصوله. لم يكن معروفًا كيف كان سينتهي المشهد، لكن جماعة التلفزيون هدؤوا من تلقاء أنفسهم. إما أن الوقت المدفوع قد نفد، أو احتاج شاب الإعلانات إلى الظهور في مكان آخر، أو ربما وصل إنذار إلى منظمي الإعلان كي يخلو المكان. بطريقة أو بأخرى، اختفت الفرقة التلفزيونية الكبيرة بسرعة مذهلة واحترافية. بقي الناشران المذكوران وحيدين في ساحة المعركة، أحدهما كان مبتهجًا ومسرورًا أما الثاني فكان منزعجًا يلهث للحصول على الهواء كي يهدأ تدريجيًّا.

خلفهما كان جناح دار نشر صغيرة غير معروفة من فولين. رأيته للمرة الأولى ولم أسمع به من قبل. كان مالكوه أو رعاته قادرين على دفع بدل إيجار جناح كبير إلى حد ما، تعرض فيه بفخر ثمانية عناوين من الكتب، رتبت الكتب هندسيًّا مثل نقش على قميص مطرز، تكررت المجموعة مئة مرة على طاولات ورفوف. ربما كانت هذه العناوين كل إصدارات الدار. في الجناح وقف شابان يبدو أنهما غير ضليعين في مجال الكتب، نظرا بإخلاص إلى الزائرين وسعيا لجذبهم. لم يتزاحم المشترون، لكن أحدهم اشترى أحد الكتب أمام عيني مباشرة.

- ألاحظت؟ - سأل أكبر الشابين سنًّا على زميله، الذي أظهر القائمة مرتبكًا:

- طبعًا.

- اسمع، هذه فكرة جيدة، أقترح وضع علامة على كل نسخة مباعة. صبّ لي قدحًا.

ورائي من جناح آخر سمعت محادثة:

- تخيل، جاء من جديد ذاك الرجل المجنون الذي يشتري كتبنا ثم يحرقها!

- انظر، ربما نحتاج إلى إحضار صناديق أخرى لجعل الكمية كافية.

وبعد بضع خطوات أخرى رأيت كيف كانت سيدة شابة نبيلة تتجول بين الأجنحة ولديها سؤال:

- هل لديك أدب موسيقي؟

في أحد الأجنحة، حيث كان يجلس شابان مملان، أجابا:

- لا للأسف. ومع ذلك، يمكننا أن نغني جيدًا.

[12] اسما الدارين فيهما لعب على الكلام من قبل المؤلف. «بلزاك» الكاتب الفرنسي الشهير، إذا ما فصل الحرف الأخير تغدو الكلمة «بلزا» وهي شجرة سريعة النمو تستخدم أخشابها الصلبة الخفيفة لصناعة الأطواف. أما لفظة «كارمان» فتعني الجيب وبمعناها المجازي المال، وإذا ما فصل حرفها الأخير تغدو «كارما»، أي المفهوم الأخلاقي المعروف حيث النيات والأفعال الفردية تؤثر على مستقبل الفرد.

٢٠. أندريه

ظهرت الدفعة الأولى من السياح.

توزعوا على مجمع الفنادق الصغيرة التي لم يبنها على أرضه تمامًا، وليس وفقًا لخططه ولكن وفقًا لأهواء السياح أنفسهم. لم يكونوا من الأثرياء، بل من الطبقة الوسطى: سويديون، دنماركيون، هولنديون، بريطانيون. تدفقوا إلى المجمع الحديث البناء جماعات وأفرادًا، ملؤوه بضوضائهم وأغانيهم الغريبة وضحكاتهم، حتى إنهم نفذوا عروض أداء قصيرة. انتشروا حول المجمع في اتجاهات مختلفة، بعضهم قصد البراكين، بعضهم الآخر أمَّ المحمية، آخرون توجهوا إلى الشلالات القريبة والبعيدة حاملين على ظهورهم حقائب ملونة، وخيامًا وكاميرات، بصخب وجلبة.

نادرًا ما زار أندريه المجمع، وترك إدارة شؤونه للمديرين والمدربين والطهاة والسقاة وغيرهم. كان معظمهم من الهنود المحليين وبينهم عدد قليل من البيض. زار العديد من السياح الأبراج المهجورة، أخبرهم أدلاء سياحيون متخصصون في الكذب أساطير عن أصل تلك الآثار وحضارتها، وسحبوا من جيوبهم أموالًا إضافية. وصل أكثر السياح فضولًا إلى أوندااندا، وحضر بعضهم الخدمة الإلهية التي أقامها الأب تاراس، ما جعله سعيدًا للغاية.

في بعض الأحيان، انخرط السياح في الحفلات المسائية المحلية، وانضم بعضهم إلى الكولا. بالنسبة لمعظمهم، كانت تجربة لا تُنسى؛ لأن موسيقى أهل أوندااندا وغناءهم يتركان أثرًا خاصًّا في نفوس المستمعين.

بعد نحو ثلاثة أشهر من انطلاقة العمل في المدينة السياحية، ظهرت شركة غريبة فيها. كان أندريه معتادًا على غريبي الأطوار، وللوهلة الأولى، بدا فريق الشركة مجموعة من الرجال والنساء العاديين: سويديين أو دنماركيين، إلا أن العلاقة داخلها كانت مريبة. تمحورت المجموعة حول رجل ضئيل البنية ذي فك كبير وقوي، يشبه الجرذ إلى حد ما. بدا نشيطًا وقلقًا ومهتمًّا بأدق التفاصيل التي قد لا تعني أي شخص على الإطلاق. لم يهتم بروائع المناظر الطبيعية، ولا بسكان المحمية البعيدة والشلالات والبراكين الخامدة، لكنه صب اهتمامه على التسلسل الهرمي في أوندااندا، وعلاقة عائلة أندريه بالمكان، وشروط استئجار الحقول، والفروق الدقيقة بين أفراد القبائل وسكان النواحي المختلفة.

تمكن خلال نصف ساعة فقط، وبعد طرحه جملة من الأسئلة حول اقتصاد الكنيسة المحلية على الأب تاراس الهادئ والمتسامح أن يبث فيه الحياة. يضم فريق الشركة رجلين آخرين. خلال زيارة غير رسمية وبلا دعوة إلى فناء بازيف، قدما نفسيهما على أنهما الحارس والمحامي. كان هذان الرجلان جزءًا من حاشية صامتة لرجل وافر النشاط، ومن دون إذنه على ما يبدو، ما كانت لتصدر عنهما أي إشارة أو حركة.

أما بقية أعضاء الشركة فكن ثلاث سيدات صامتات أيضًا. أندريه الذي كان يعرف ما يكفي عن الحياة الإفريقية، وزار نواحي متعددة وتعرف إلى قبائل وعادات مختلفة، كان يعلم أن العبودية، وخاصة عبودية النساء، موجودة في المناطق النائية، وهي ليست بعيدة جدًّا. وقد راقب هؤلاء السيدات الثلاث الصامتات: سلوكهن، تعابير وجوههن، عيونهن، أسلوب حياتهن. هؤلاء النساء

البيضاوات الآتيات من شمال أوروبا أعطينه انطباعًا عن العبيد، حريم ذلك الجرذ، يعتمد وجودهن على مزاج المالك وأهوائه. يبدو أنه كان قادرًا في أي لحظة على جلدهن.

كانت المجموعة تتنقل في ضواحي أونداندا وتتفحص كل شيء، وكان الذكر الفخور يدخل أنفه الطويل في كل مكان. خلال زيارة دون دعوة لتناول فنجان من القهوة، أجرى أندريه محادثة قصيرة معه باللغة الإنجليزية.

- ما الذي دفعك إلى ديارنا؟ أنت لا تشبه السياح في شيء.

- كل شخص يرتاح بالطريقة التي تناسبه.

- ومع ذلك، على حد علمي، لم ترغب في زيارة أي من الأماكن الجديرة بالاهتمام التي عرضناها عليك.

- لقد رأيت الكثير في حياتي لدرجة أنه يصعب أن تجذبني أو تثير اهتمامي.

- إذًا لماذا أتيت إلى هنا؟

- يحدث هنا أمر مثير للاهتمام. وصلني أن قصة غير مألوفة تنسج الآن، وأن العلاقات تتطور بين أناس مختلفين. أولًا: هذه الأرض تجذب بعض الناس من أوكرانيا البعيدة والغريبة، بالمناسبة أنوي زيارة وطنك. وفي التجمع البشري المحلي، لما تتأسس العلاقات ضمن تسلسل هرمي ولما تتحدد طريقة الحياة بعد؛ لأن جميع أفراده مختلفون وغريبون. وهذا جذبني بشكل خاص، حتى إنني غيرت طريقي المعتاد في إفريقيا، شعرت وكأن جلدي يحكني.

- جلدك؟ ربما كل هذا مجرد كلام، أما في الحقيقة فأنت مهتم بالنفط؟ لاحظت اهتمامك بالمعدات، إلا أنها ليست هنا.

- أنت لا تزال شابًّا. يجب كسب المال من الناس وليس استخراجه من باطن الأرض. لا يوجد شيء في العالم أكثر أهمية من العلاقات الإنسانية. ليس عليك سوى العثور على مكانك، والتدخل في الوقت المناسب، والتأكد من أنه لا يمكن الاستغناء عنك. النفط عديم الفائدة هنا.

- ماذا عن جلدك؟ بم أخبرك؟

- يقترح جلدي أن السيد الأوكراني الموقر أندريه بازيف يمكن أن يكون مفيدًا لي، ويساعدني في كسب مليونين أو ثلاثة ملايين أخرى، أو حتى أكثر.

- كما تعلم، لست أول من يعتقد ذلك. في بعض الأحيان يحدث خطأ ما لأمثالك، وأحيانًا أخرى قد ينتهي الأمر بشكل سيئ.

ضحك الرجل بصدق.

- ملاكي الحارس يعتني بي، ولم يخذلني أبدًا. بصراحة، لم أعرف بعد أين أموالي، لكنها بالتأكيد موجودة هنا. لا تهتم، في هذه الحال أنت وسيطي فقط، موصل الطاقة الذي لا يدرك كيف يوصلها وإلى أين. لا يمكنك أن ترى أو أن تخمن. انتظر سيحدث ذلك. أقول لك للمرة الأخيرة، إنني لست مخطئًا أبدًا ولا أفعل أي شيء عبثًا.

٢١. أنطون

في القاعة المجاورة، بدأ رومان ساهيداتشني خطابه. تقاطر للاستماع إليه ممثلو قوى سياسية مختلفة التوجهات ومتناقضة المسارات، حتى إن خصوم روبن ومناهضي الصهيونية استمعوا بانتباه كبير إلى القصة الهادئة والقصيرة التي تلاها السيد رومان. ما كان يبحث عن علاقات عامة، بل أحب وطنه وناسه وأرادهم أن يعيشوا بشكل جيد. يمثل أسطورة بشرية، وصل نضالها من أجل استقلال أوكرانيا إلى عصور قديمة. كاتب قوي لم تنل من عزيمته المعسكرات الستالينية والقمع السوفيتي اللاحق. احتفظ بعقل مشرق وترسخت فيه روح الدعابة على مر السنين. لا يزال يكتب نصوصًا تستحق القراءة.

أنهى ساهيداتشني خطابه بطريقة بارعة للغاية مودعًا الجميع معًا، ثم وقف متشوقًا منتظرًا كل من أراد مصافحته، أو توجيه كلمة إليه، أو مجرد الحصول على توقيعه. لاحظني وهو يعرفني منذ الطفولة. في الواقع، كان يعرف والدي جيدًا، ومن خلاله نمت صداقتنا.

- أنطون، دعنا نذهب، فلنحتس كأسًا.

في المقهى الأدبي، كان رجلان يشتريان السجائر. أحدهما حمل المال، والآخر نظر إلى علبة الدخان. قرأ:

- التدخين يؤدي إلى العجز الجنسي. - صُدم الآخر، فقال للبائع:

- لا، لا أريدها. أعطني تلك التي تتسبب بسرطان الرئة.

ابتسم ساهيداتشني وطلب الكونياك المفضل لديه.

- كيف يعتني الشباب بصحتهم اليوم؟

- كأس أسطورة الأدب الأوكراني، بصحتك، وبنجاح جميع فعاليات المعرض!

- لا تعبث. من الأفضل أن تخبرني كيف صحتك، وكيف حال ناتالكا، وما الجديد في العلوم التاريخية الأوكرانية؟

- تبدو ناتالكا بصحة جيدة، لكن العلم يتطور على نطاق واسع، ومن الصعب جدًّا المضي قدمًا. لا سبيل للعودة إلى الوراء. أخبرني، كيف هي العملية الأدبية الأوكرانية الحديثة، وما مدى اتساعها؟

- أنت تعرف أنطون، -ارتشف ما في كأسه وتناول قطعة حلوى خفيفة لذيذة، ثم انحنى نحوي- فلتذهب العملية الأدبية الأوكرانية الحديثة إلى الجحيم. من الأفضل لنا أن نتحدث عن الكتب نفسها.

٢٢. أندريه

في أحد الأيام، أراد أندريه أن يبحث مع زوجته مسألة ما، بحث عنها في المنزل، وجدها في المطبخ توضب علب البيرة وبعض الأكياس في الثلاجة الكبيرة، وتنظر بين الحين والآخر إلى شاشة التلفاز الضخمة على الحائط. كانت تبث سلسلة من الأخبار تتخللها إعلانات.

- ماذا تشاهدين؟ أخبار الدول المجاورة! أيمكنك مشاهدة قنواتهم التلفزيونية؟ ألا ترغبين في مشاهدة أخبار كوريا الشمالية؟

- يجب أن أولي اهتمامًا بما يدور من أحداث عند الجيران، حتى لو وصلت الأخبار متفرقة.

- وما هو المثير للاهتمام فيما تشاهدين؟

- أتعلم؟ هناك أمر غريب. لليوم الخامس على التوالي، يشغلون مقطع فيديو، يحثون فيه المواطنين على توخي الحذر عند معابر السكك الحديدية. يبثونه بالطبع إلى جانب البرامج المعتادة. لم تكن الحال كذلك من قبل.

- حقًّا؟ منذ نحو أسبوع شاهدت مقطع فيديو آخر يخبر عن فوائد تناول اللحوم. كل ما في الأمر أن البابا، مثل الوالد الحقيقي، يهتم بصحة رعاياه. إرشادات تتعلق بالصحة والسعادة والحياة يوجهها إلى الذين لا يزالون على قيد الحياة.

- من الواضح أنك لم تبتعد بأفكارك عن النمط الأوكراني ولم تنغمس بالكامل في النمط المحلي. لدينا هنا مشكلة كبيرة في النقل بالسكك الحديدية. على حد علمي، لا يوجد سوى ثلاثة قطارات، هي بالطبع قطارات شحن، ولا تظهر على القضبان سوى مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر. تكرر هذه الفيديوهات ينبئ بأمر خطير ما.

- أترين؟ رأى السكان القطارات، لذلك يحتاج إلى تذكيرهم بمخاطرها. الأمر واضح.

نسي أندريه لم كان يبحث عن ليزي، وذهب إلى عمله.

في المساء جاء مارميديوك لرؤيته.

- أتستمتع بمشاهدة الشفق، بوانا، كيف هي أحوالك؟ - لم يفوت الرجل فرصة لإظهار معرفته بالأوكرانية.

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام. ألديك رسالة من الطرف الآخر؟

- أفاد صديقنا أن مناورات كبيرة يقودها الجنرال انطلقت على بعد مئة كيلومتر من العاصمة؛ لذلك لا تتوقع أي أخبار في المستقبل القريب. إنه يعتمد عليك في تطوير الأعمال، ويأمل أن يرى خطط أعمال أصلية جديدة على طريقة السيد بازيف، في غضون ثلاثة أسابيع فقط. سيقدم آراءه وتقييماته لاحقًا. بالإضافة إلى ذلك، أكد أنه على الرغم من أهمية النشاط الاقتصادي، إلا أنه لا يكفي. في الاجتماع التالي، يخطط لبدء عمل سياسي طموح، وكل ما يحيط بالسياسة من أمور. يعتقد السيد الجنرال أن دولة واحدة وإن لم تكن سيئة إلا أنها غير كافية، فهذه القارة ضيقة بالنسبة إلى شخص مثل أندريه بازيف. لديه أفكار غير متوقعة حول هذا الموضوع، ولكن هذا كله متروك للبحث أثناء

الاجتماع.

قد يكون من الصعب مفاجأة أندريه، لكنه تفاجأ إلى حد ما.

- هل كان يبيت مثل هذه الخطط لي منذ البداية يا مارميديوك؟

- أنا حقًّا لا أعلم. ربما قام بفحص ما أنت قادر عليه. لا أحد يعرف ما في رأسه، وأنت بنفسك شعرت أي نوع من الأشخاص هو.

- دعنا ننتظر الاجتماع. بالمناسبة لاحظت أنهم في أوندا ندا يحاورونني باللغة الأوكرانية عندما تكون لديهم حاجة لقول شيء ما. أهذا بتأثير منك؟

- من؟ كاترين تحبذ ذلك، والأب تاراس يساعدها بكل طاقته.

- موافق، هذا غريب إلى حد ما. أين أوكرانيا وأين إفريقيا. وكيف حال السكان؟

- الفتيات يحببن التقرب من الثقافة الأوكرانية، على سبيل المثال، تقدم كاثرين درسًا الليلة عن كيفية نسج أكاليل الزهور؛ لأنها تقول إن الحفل المقبل قريب، سيقام حين يلتقي الشتاء بالصيف. في فصل الشتاء، يكون كل شيء سهلًا، لكن في الصيف تحتاج النساء إلى الزينة وأكاليل الورود. والرجال يشتركون في الدرس أيضًا، كثيرون منهم مهتمون. سأكشف سرًّا، إنهم يعدون مفاجأة لك ويتعلمون نوعًا من الأغاني الأوكرانية.

- عن أي حفل تتحدث؟ ألا يكفينا حفلات هنا؟ ألا يخاف أحد من إغضاب الأرواح؟

غدا مارميديوك جادًّا فجأة، وقال:

- لا تمزح هكذا، بوانا. الأرواح المحلية تشجع هذه النشاطات. يبدو أنها مهتمة بالأوكرانيين، وها هم الأوكرانيون يعيشون هنا الآن. هناك شيء ما على هذه الأرض مرتبط ارتباطًا وثيقًا ببلدك، حدث منذ زمن طويل. شيء ما متجذر هنا.

- لا بأس؛ لأنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها هذه العبارة. – فكر أندريه أن عليه إخبار ليزي بكل ما سمعه عن الخطط السياسية وعن محبة الأوكرانيين، وعما يدور في خلد الجنرال.

لم يكن أندريه يعلم أن شقلبة جديدة من القدر تنتظره في غضون يومين فقط.

كانت ليلة الأحد. حول المائدة كانت كاترين والأب تاراس وليزي. راقت لأندريه فكرة هذه اللقاءات وتحويلها إلى تقليد. سعدت ليزي أيضًا بدور السيدة المحلية المضيافة، وحاولت توفير جو مريح وطعام لذيذ لأصدقائها.

لم ينتبه أحد إلى التلفزيون الكبير الموجود في الزاوية، ولكن أثناء وقفة قصيرة قبل تقديم طبق جديد، أخذ الأب تاراس جهاز التحكم عن بعد بين يديه وبدأ في البحث بين القنوات.

نظر بازيف إلى الشاشة، حيث قطع البث بنبأ عاجل لكن القناة غيرت. انتزع جهاز التحكم عن بعد من الضيف المذهول. ومضت على الشاشة قطع من الحديد وتحطمت سيارة، واستمر المذيع يقول:

- حدث عند تقاطع للسكك الحديدية أن اصطدم موكب الجنرال ليسترونغ توندا بقطار شحن. توفي

الجنرال نفسه وعقيدان معه والسائق على الفور. اثنان من الحراس في حالة خطيرة في المستشفى. جهاز الأمن يبحث في أسباب الاصطدام، والمرجح أنه إهمال من السائق.

خفق قلب أندريه بشدة وتدحرج إلى أسفل. دارت به الغرفة، دارت وجوه زوجته وصديقيه المرتبكة والمفاجئة وغرقت في الظلام.

٢٣. أنطون

في صفوف دور النشر التي تعني بأدب الأطفال، لفت انتباهي جناح مجلة "مورتشيك" المصورة المخصصة لأصغر القراء. في الجناح رجلان متطابقان تمامًا، مثل توأمين، أصلعان يرتديان سترتين متطابقتين حمراوين. كان شكلهما داخل هذا الجناح غريبًا جدًّا، حتى إن العائلات التي تتجول مصطحبة أطفالها كانت تبتعد خائفة، على الرغم من أغلفة "مورتشيك" زاهية الألوان. توقفت. كنت أنظر إليهما من بعيد عن كثب، لأنني لم أر مثل هذين الناشرين من قبل. كانا حزينين يشعران بالملل بصراحة.

ركض أوليغ فوروني أمامي مرة أخرى. أمسكت به من كمه، وسألته:

- اسمع، من هذان؟ أنت تعرف الجميع بطريقة أو بأخرى، ليسا مثل أولئك المتخصصين في أدب الأطفال.

- ليست لدي فكره. ربما "مورتشيك" أفلست، وهذان المالكان الجديدان أخذا الدار في مقابل الديون؟
- وركض.

في هذه الأثناء، من تحت منصة مجلة الأطفال هذه، تدحرجت زجاجة كونياك فارغة ببطء، وكسرت بشكل فاضح الصمت السائد في الجناح. تنبه جميع الناشرين، من دون استثناء، والتفتوا نحو مصدر الصوت المألوف. يبدو أن أولئك الأقرب حاولوا معرفة العلامة التجارية وعدد النجوم على الزجاجة. هدأ زوار المعرض كذلك. وقد أبدى ممثلو دار نشر دينية تابعة لإحدى الكنائس الجديدة الاهتمام الأكبر بما حدث، على الرغم من أن جناحهم يبعد ثلاثة صفوف. تخطوا الجميع واقتربوا لمشاهدة الحدث لكنهم لم يلمسوا الزجاجة. بدا الأمر غريبًا، فهؤلاء الكنيسيون يشبهون ظاهريًّا صاحبي دار "مورتشيك". تبين أن تقنية ضبط النفس عند مالكي مجلة الأطفال لا تشوبها شائبة. لم ترتعش عضلة واحدة على وجهي الشقيقين التوأمين، ولم يبذلا أي محاولة لإزالة القطعة الأثرية. لمدة خمس عشرة دقيقة، ظلت الزجاجة في الممر، حتى التقطتها عاملة النظافة، ثم أسرعت الخطى لتختفي خلف الزاوية.

٢٤. أندريه

لم يُملأ الفراغ بأي شكل من الأشكال. هناك شيء مهم للغاية مفقود في الحياة، كما لو أن الجسم فقد رجلًا أو ذراعًا. عملت المدينة السياحية على ما يرام، لم تزدد فيها وتيرة الأعمال ولم تنقص. كان بازيف مالكها الشرعي. صعُب على أندريه أن ينظر إلى أعماله بعد رحيل الجنرال، كان يقود سيارته غالبًا في طرق مألوفة بعيدًا عن الناس ويفضل أن يبقى وحيدًا.

ذات يوم، عندما عاد إلى المنزل، بدت ليزي قلقة بعض الشيء.

- الجوع يأكلني، وأنا مستعد لالتهام تمساح سمين.

- علينا الانتظار، لديك ضيف على الشرفة.

خفق قلب أندريه بشدة. لاشعوريًّا، كان ينتظر بشكل دائم الأخبار "من الجانب الآخر". شعر وكأن الجنرال ينتظره لمقابلته، سيتقدم منه بمشيته النابضة الرصينة، وأنه على قيد الحياة وبصحة جيدة.

إلا أنه من خلف الباب المفتوح ذلك الرجل الشبيه بالجرذ صاحب الفك القوي. كان من دون حاشيته المألوفة.

- تحياتي سيد بازيف. آسف للتطفل، لدي حديث معك.

لم يكن أندريه جاهزًا بطريقة ما لاستقبال هذا الزائر؛ لذلك تنهد واقترح:

- لدينا عشاء. يجب أن يكون هناك شيء لذيذ.

- لا تقلق. إن كنت لا تمانع، دعنا نتحدث هنا. لن آخذ الكثير من وقتك.

- تفضل.

جلسا على كرسيين من الخيزران. شرع الرجل حديثه كأنه مذيع تلفزيوني:

- لنتحدث بإيجاز وصراحة. طوال حياتي، كنت أتخذ جميع القرارات بناءً على مشورة ملاكي الحارس –استخدم مرة أخرى كلمة باتت مألوفة لدى بازيف– لم تكن أسباب تصرفاتي مفهومة دائمًا، حتى إنني لم أستطع دائمًا شرح سبب قيامي بهذا الأمر أو ذاك. ومع ذلك، فإن ملاكي لم يخذلني أبدًا. في الحقيقة، أنا لا أحب الناس على الرغم أنني أعرفهم وأفهمهم جيدًا. الناس هم الناس الذين يجب أن يجلبوا المال إلي. أفراد، طوابير، مجموعات، قارات من الأفراد. وأنا -في المقابل- يجب أن أعطيهم شيئًا للوصول إلى المال. فأقوم بذلك.

- يا لك من فاعل خير للبشرية؟

- في أي حال من الأحوال. هناك العديد من المحركات في عالم الإنسان. التقدم التكنولوجي مثير للاهتمام، لكنه ليس الأقوى، ومع ذلك، فهو موجود بشكل موضوعي، ويستحق منحه قيمته ويستأهل استخدامه. السيارات الجديدة تحل محل القديمة، والهواتف المحمولة تحل محل الخطوط الأرضية، وستحل أجهزة المساعد الرقمي الشخصي قريبًا محل الهواتف المحمولة وأجهزة التلفزيون بل وحتى الساعات. إنها مسألة وقت فقط.

- ولماذا تخبرني بكل هذا؟ ليست لدي شركة مصنعة لأجهزة الكمبيوتر.

- الآن سوف تفهم. المحرك الثاني، الأكثر قوة، هو النزعة المحافظة لدى الإنسان. بقدر ما قد يبدو غريبًا، فإن السباق والسعي لتحقيق التقدم مرتبطان عضويًّا بهذه النزعة المحافظة. يحدث هذا بمساعدة محرك ثالث أقوى، وهو النمط أو الموضة الخفية. إنهم يتسابقون لاقتناء أحدث جهاز، أي جهاز، لكن الجميع يريدون مشاهدة أفلامهم المفضلة عليه، والاستماع إلى موسيقاهم المفضلة، والانتقال إلى مواقعهم المفضلة وما شابه. فيما يخلق تنوع الأجهزة فراغًا عندما يكون ما سمعته أو شاهدته غير كافٍ بالفعل، كما يقول الخبراء. وتسمى هذه الظاهرة نقص المحتوى. يجب أن يحتوي كل نموذج معلن عنه جديدًا على شيء جديد متأصل فيه وأصيل بما للكلمة من معنى. لكن هذا الجديد يجب أن يقوم على القديم ويتغذى منه، ويشكل استمراريته العضوية. مثل كعكة قديمة مفضلة مع حشوة متغيرة قليلًا في عبوة جديدة، لو لم تكن قديمة لما نظر إليها أحد على الإطلاق.

- حديث ممتع جدًّا، لكنني لا أفهم لماذا تخبرني بكل هذا؟

- إنه ليس أنا، إنه ملاكي الحارس. في وقت من الأوقات، جمع جوبز بين عالمي الكمبيوتر والموسيقى. استغل شركات التسجيلات وجنى منها ملايين الملايين. خلق حاجة جديدة للناس من أجل إرضائهم، فكان عليهم دفع المال له. وبالفعل دفعوا.

- أتعتبر نفسك ستيفن جوبز؟ - ضحك أندريه.

- لدينا مسارات مختلفة، لكنني لست أقل منه ذكاء. دعنا نصل إلى اتفاق. تخبرني حواسي أن العالم على وشك جيل جديد من أجهزة كمبيوتر الجيب. لا يهم ما يطلق عليها من أسماء، إلا أنها ستجمع بين العديد من الوظائف في جهاز واحد. ومع ذلك، فإن النزعة البشرية المحافظة التي أخبرتك عنها ضرورية. والجهاز الجديد يجب أن يتوافق مع الموسيقى المتأصلة، وأن توزع بواسطته، وألا تنفصل عنه. أشعر بذلك بكل خلاياي. كل تجربتي تصرخ أن هذا مكان مناسب، وأن الطريق أمامنا ميسر. يبدو لك ولرفاقي أنني جئت إلى هنا عن طريق الخطأ، أن هذه مجرد رحلة وانطباعات جديدة وبقصد الراحة، لكنني أومن بالقدر، القدر هو الذي أوصلني إلى هنا، القدر هو الذي يجعلني أجلس هنا وأكشف لك عن خططي.

- لكن لماذا؟ ما زلت لا أفهم، ماذا علي أن أفعل؟

- منذ متى وأنت في أوندواندا؟ هل سمعتهم يغنون في الكولا؟ هذه هي الموسيقى التي يجب أن تملأ المكان المناسب في روح الجهاز الجديد. هذا ما يجب أن يكون، نغم واحد لجميع القارات من دون استثناء، حتى في القارة القطبية الجنوبية، لكن أمامي شهر فقط لإنجاز الأمر، ربما ثلاثة. إذا لم أفعل هذا، فسيحل شخص آخر في المقدمة، وستصبح هذه الموسيقى عديمة الفائدة بعد ستة أشهر. سوف يستمعون إليها بالطبع، لكن فرادى، سوف يحبونها ويبكون ويفرحون. على أي حال، سينتهي الأمر خلال عام واحد، لدينا عام.

كان أندريه مخدرًا من المفاجأة.

- لدينا؟ لكنني لست مؤلفًا أو منتجًا، على الرغم من أن الموسيقى تنخر العظم حقًّا.

- أنت مسؤول رفيع المستوى في هذه المنطقة. كل شيء لك. لدي أفضل المحامين في العالم. إذا

كان لديك أدنى شك، فلن تراني هنا. فكرت في هذا. من يملك الأرض هنا هو كل شيء.

- حسنًا. لدي سؤال آخر، ما علاقتك بالأمر؟ ما الذي يمنعني، بعدما استمعت إلى حججك، من الترويج لهذه الموسيقى بشكل مستقل؟

ضحك المحاور، كانت ضحكته صادقة وطفولية. يبدو أن أندريه كان محظوظًا لأنه أضحك جليسه.

- لا شيء، لكن بالتأكيد لن ينتج شيء عن ذلك. إذا لم نتفق، سأذهب وأجد ما أحتاج إليه في أوندااندا أخرى، في بلد آخر، في قارة أخرى. وستبقى الكولا مخصصة للرقص في المساءات، وتضيع الفرصة. ستة عشر في المئة. حصة واحدة، وستحل العديد من المشاكل المالية، إن وجدت.

- إذًا هل ستكتفي بستة عشر في المئة؟

- بني، أقدم لكم ستة عشر في المئة، وهذا عرض رائع، وأنا آخذ كل شيء على عاتقي. لا أعتقد أنك تعرف حتى كم، وماذا، وكيف، وما هي الأموال التي تستثمرها وأين تجدها.

أتى صوت طرطقة من خلف الباب، ثم انفتح على مصراعيه، وطارت ليزي إلى الشرفة.

- كنت أستمع –قالت للرجلين– عشرون!

نهض الرجل الجرذ، كما لو أن هذا بالضبط ما كان يتوقعه من زوجة بازيف.

- سبعة عشر، هذه هي الكلمة الأخيرة. هذا الواحد في المئة الإضافي لها -ابتسم- ها هو العقد. تفحصه، سأستلمه في المساء.

نظر بازيف بسرعة إلى كومة الأوراق الممتلئة. قفز الرقم سبعة عشر إلى عينه من الصفحة الثانية أو الثالثة. ذُهل تمامًا:

- لو كنتُ وافقت على ستة عشر، أكنت لتعطيه لي؟ أو كنت لتنسحب ببساطة؟

- بني -خاطبه محاوره مرة أخرى بهذا اللفظ- أعمل في هذا المجال منذ نحو أربعين عامًا. وأرى من خلال الناس. بالمناسبة، يجب أن نمنح هذا النوع من الموسيقى اسمًا. أعتقد أنه سيكون شيئًا أوكرانيًّا إفريقيًّا، على سبيل المثال رقصة اليوكيف. يبدو الاسم جميلًا ويرسخ في الذهن. عُمتما مساءً، سيدتي وسيدي!

- أمر عجيب -نشر أندريه ذراعيه وعانق زوجته بهدوء- رقصة اليوكيف!

٢٥. أنطون

مشيت عبر الأجنحة. أردت أن أرى شيئًا ذا قيمة. أود أن أعتقد أن الجهود الفائقة التي يبذلها ناشرونا من أجل تسلية "السادة من الشتات" ستظل تؤتي ثمارها. في الواقع، وجدت شيئًا لافتًا، رأيت العديد من الكتب الرائعة لجيل النهضة، تفحصتها، سال لعابي؛ فاشتريت أحدها.

في السنوات الأخيرة، ظهرت العديد من دور النشر المتخصصة في الأدب التاريخي، نمت كالفطر بعد ليلة ممطرة. تقع معظم أجنحتها في ممر منفصل. كالعادة، قمت بمراجعة العناوين الجديدة. في الواقع، كان هناك شيء مثير للاهتمام، خاصة بين الترجمات، لكن حجم محفظتي سمح بشراء كتاب واحد فقط؛ لذلك قررت تناول هذه المسألة بعقلانية وحذر. بالإضافة إلى ذلك، أوعَدتني ناتالكا بأنها ستطردني من المنزل إذا أحضرت المزيد من الكتب الجديدة. قالت إننا في عصر الكتاب الرقمي، وإن منتجات غوتنبرغ هذه التي تتعدى على مساحة معيشتها قد شارف زمانها على نهايته، أما أنا فلا أرتاح دون كتاب حي يمكن أن أمسكه في يدي، وأشعر برائحته، وأتصفحه وأتحدث إليه، وكان على الزوجة أن تتحمل ذلك.

بصفتي مؤرخًا محترفًا، كان من الصعب أن أفاجأ بشيء ما. قرأت معظم العناوين الجديدة المعروضة، لقد كانت قديمة إلى حد ما حتى قبل نشرها، وكان هناك العديد من الكتب المعاد طباعتها. بدت الأعمال الفردية مثيرة للاهتمام، لكنها لم تصل إلى مستوى كاف لشرائها. إلى جانب الكتب القائمة على البحث العميق، التي تجذب أي شخص مهتم بالتاريخ، رأيت أعمال مؤلف معروف كأحد الباحثين الأوكرانيين الزائفين، وقد ظهر مؤخرًا في العديد من القنوات التلفزيونية. كان جوهر بحثه هو أن حضارة العالم بأسرها، بما في ذلك الإمبراطوريات القديمة، جاءت من الأوكريين[13] الأسطوريين القدماء، الذين انتشروا في جميع أنحاء العالم ونشروا المعرفة بين الشعوب، وفي هذه القضية، استُخدمت هذه المقولات كأدلة، والسؤال الذي يطرح نفسه هو سبب الإفراج عن هذا المتفوه من مستشفى المجانين. يبدو أن مثل هذه الأعمال قادرة على إثارة الكراهية لكل شيء أوكراني، حتى لو كان وطنيًا.

مع الأسف، مررت بتلك الزاوية التاريخية وانتهى بي المطاف في مجال الرواية الخيالية، وعلى الفور اصطدمت بسلافا شاركفيتش، وهو زميل آخر من أيام المدرسة، كان ينظر باهتمام إلى أكوام الكتب.

- أنطون. أين ستلتقيان؟

- في الواقع، منذ عدة سنوات لم أرك أو أسمع شيئًا عنك. دعنا نذهب ونتحدث.

- الآن، دقيقة واحدة. سأنتهي.

- أراك مهتمًا؟

- أحاول مواكبة الأدب الأوكراني الحديث.

تذكرت ما قاله السيد رومان وموقفه من العملية الأدبية الحديثة. تراجعنا إلى الزاوية.

- وكيف؟ أيستأهل فعلًا؟

- بل هو مزعج. على سبيل المثال -سلمني سلافا كتابًا- بدأ هذا الرجل في الكتابة حين كان في الخامسة عشرة، والآن يبلغ ضعفي هذا العمر، لكنه يكتب بالطريقة نفسها، على الرغم من أن هذيان المراهق لم يعد يعمل.

- لماذا اشتريته؟

- زوجتي تحبه -جفل رفيقي- تقول كلامًا طيبًا عنه. في رأيي، يجب أن تكون لغة الكاتب جيدة بشكل بديهي. بالإضافة إلى اللغة، يجب أن يكون هناك شيء آخر، وعندما لا يكون هناك شيء على الإطلاق، ومن الضروري التحدث عنه، فإنهم يتحدثون فقط عن لغته.

- لا تقل ذلك، يحدث أن يكون الكاتب أيضًا بلا لغة، مثل أي شيء آخر. دعني ألقي نظرة. ياه. أنا أعرفه شخصيًّا.

- كما تعلم، الرجل غبي حقًّا، ليس لديه ما يقوله للناس حتى الآن. ليس لديه ما يكفي من الخبرة. بالمناسبة، في تجربة الحياة، إذًا هل أنت متزوج؟

- منذ زمن؟ وكيف الحال معك أنت؟ أتذكر أنك لم تجد نفسك لفترة طويلة.

ذبل شاركفيتش بشكل ملحوظ.

- وجدتها.

- حسنًا، أخبرني.

- لن تحب الأمر.

- أوه حقًّا؟ ستكون دائمًا سلافا بالنسبة إلي. لعبنا معًا كرة القدم وهربنا من الدروس، حتى لو أصبحت مالكًا لنادي مثليي الجنس، لا بأس.

- لقد خمنت ذلك تقريبًا.

- هل خمنت؟ - صمتت في مفاجأة.

- كذلك ليس تمامًا. كما تتذكر، لم أتمكن حقًّا من العثور على وظيفة. أزمة، تقليص عدد الوظائف، إفلاس الشركات، كان الأمر سيئًا بشكل قاتل.

سمعت أن أحد الأصدقاء يحتاج إلى مساعد. كان يتاجر بمنتجات متجر الجنس عبر الإنترنت. كل شيء مجهول. اشتراها في الخارج بموجب طلب خاص وأرسلها إلى الزبائن بعد الدفع. نما عددهم وتوسعت التجارة؛ لذلك عملت لعدة سنوات.

- والآن؟

- كان مدينًا لشخص ما هناك، أو تجاوز حدوده، أو شيء من هذا القبيل. باختصار، قُتل. وقد ورثت هذا العمل مع زوجته. هكذا أعيش!

- ألم تخف؟ ربما لا يزال هناك الكثير من المصائب في طريقك؟

- نعم كنت خائفًا. وما العمل؟ التجارة منتجة والعائلة قوية. بالإضافة إلى ذلك، ساعدني أندريه بازيف. قبل عام أو أكثر بقليل، كان في كييف في الوقت المحدد وأصلح الأمر عبر قنواته الخاصة، وقال إنه من الممكن أن أتابع العمل.

- وهنا بازيف أيضًا؟ كان من الأفضل أن تلجأ إلى سيرغي طلبًا للحماية. على الأقل أقرب.

- لا تكن سخيفًا -للمرة الثانية تقال لي هذه العبارة اليوم- مدرستنا هي أثمن شيء في حياتي. وماذا يمكننا أن نقول عن اللغة الإنجليزية وأين كانت تدرس بهذه الطريقة؟ أتذكر المعلمين من الصف الأول إلى الأخير، والأهم من ذلك، منحتني المدرسة هؤلاء الأصدقاء: أنت، أوليغ، روبن، بوهدان، أندريه، والآخرين، كنتم من صنعني على ما أنا عليه اليوم. لا تبتسم. هذه ليست كلمات سامية. أنت تقول كرة القدم. لعبها الجميع، لكن في أي مكان آخر لعبوا ألعابنا الأدبية؟ أو ألعاب ممالكنا بسياستها وحروبها واقتصادها؟

- وكل هذا ساعدك كثيرًا في الحياة؟

- لا تستخدم لفظة ساعد على هذا النحو. هذا أنا وهذه هي حياتي. وانظر كم أنجزتم جميعًا؟ إيغور بشكل عام كاتب عصري. هل قرأت له؟

- نعم قرأت. لم أحب الكتاب. أراه مرة كل ستة أشهر.

- أعتقد أن هناك سببًا لذلك. بالمناسبة تفاصيل حياتي فقط أنت وبازيف تعرفانها.

- ربما لم أخبرك. هل تعلم أن بازيف في كييف؟ كل رفاقنا يتحدثون حول هذا الموضوع.

- نعم سمعت. أود أن أراه معك ومع الأصدقاء. هل يمكنك المساعدة؟

- لا أريد ذلك. لا أستطيع مساعدتك!

13الأوكريون: الاتحاد القبلي للسلاف الغربيين، الذين عاشوا حتى القرن الثاني عشر على ضفاف نهر أوكر، في الأرض الواقعة بين إلبا وزال وبحيرة شيتشيتسين، من المناطق التابعة لبوميرانيا وبروسيا، التي تحمل اليوم اسم أوكرمارك وتقع شمال شرق ولاية براندنبورغ الألمانية الحديثة، بالإضافة إلى مقاطعة بولتسك على الحدود البولندية الألمانية.

٢٦. أندريه

ولم يطل الوقت حتى أتت المفاجأة. في منتصف فبراير، سلمته فتاة من أوندانْدا مظروفًا كبيرًا، كانت تنتظر لمدة ساعة ونصف الساعة حتى عاد من مفاوضات العمل. نص الرسالة الأوكرانية المكتوبة بأحرف غير منتظمة: "عزيزنا بوانا. اليوم في تمام الساعة السابعة مساء سنكون سعداء برؤيتك في الكولا". تحت هذه العبارة كتابة بخط يد مارميديوك "الحضور إلزامي".

لم يستطع بوانا تجاهل ذلك، وقبل السابعة بربع ساعة، رافق تلك الفتاة الصامتة المأخوذة بهيبة مهمتها، إلى أوندانْدا. بدت القرية كلها هنا. في المركز، أنشئ مسرح مرتجل ذو ستارة حقيقية. كان الجميع ينتظره؛ لأن العمل بدأ على الفور. رفعت الستارة. توجهت فتاتان بعضهما نحو بعض، كما توقع أندريه، واحدة تمثل الشتاء والثانية الصيف. كانت فتاة الصيف ترتدي قميصًا مطرزًا وتعتمر تاجًا كبيرًا من الزهور، وعليها وشاح أخضر اللون، كان في يديها منجل وحزمة من السنابل. لو لم تكن داكنة البشرة لظن الناظر إليها أنه في مكان ما في بوديليا. الشتاء كانت فتاة صغيرة ترتدي أسمالًا مرقعة ووشاحًا باليًا، تنتعل حذاءً ممزقًا، وعلى رأسها شعر رمادي مستعار، حملت شوالًا فارغًا وسلة ثلج مكسر، كانت تذوب ببطء. انحنت وعرجت، وقادها مرميديوك، مرتديًا ملابس سانتا كلوز، من ذراعيها.

ربما كان الشخص الوحيد الذي يعرف كيف يجب أن تبدو تلك الشخصية. في منتصف المسرح التقى الجميع.

- وفقك الله يا شتاء. - قالت الصيف.

- الله حاميك. - أجابت الشتاء.

- أراك عملت وكسبت، وأكلت وشربت. – قالت الصيف موبخة.

ثم بدأتا تتجادلان من يذهب ومن يبقى. في ظروف إفريقيا، كانت نتيجة النزاع محددة سلفًا، وبالتالي تركت الشتاء المسرح مُهانة مخلفة وراءها مسارًا من الجليد الذائب.

أسدلت الستار، ثم رفعت فظهرت الجوقة التي أدارتها السيدة كاترين على خشبة المسرح وغنت عدة أغنيات. وقد برز بين أفرادها مارميديوك، الذي لم يكن لديه الوقت لخلع ملابس سانتا كلوز. كان الجميع سعداء، وبينهم بازيف وزوجته.

دعا الممثلين والجوقة إلى مائدة العشاء حيث قدم لهم الهدايا، وهنأ أندريه كاترين على نشاطها.

- من أين حصل الرجال على قمصان مطرزة؟

- آه، هذه قضية معقدة. الفتيات نسجن وطرزن بأنفسهن. وهذا الشاب الضخم، تيونيست، راسل منتجي القمصان في لفيف قبل ثلاثة أشهر. مشغل "جوزينيل"، تعرفه، طلب قميصه وفق الكتالوج الألماني، فوصل. كان لدى مارميديوك قميصه الخاص، أما أوغستين فلم يرغب بارتداء اللون الأبيض على الإطلاق، حصل على قميص أسود من مكان ما. فغدا قميصه محل حسد. ما الذي حدث، أراد تويينيست مساعدة مونغو، لكنه وجد أن زخرفة لفيف لا تناسبه.

وانتهى الاحتفال بحفل عشاء.

٢٧. أنطون

في قاعة المؤتمرات الأكثر رحابة، نظم الحدث الرئيس للمعرض، وهو لقاء مع الكاتب المشهور عالميًّا ذي الأصل الفنلندي هاكولو بولينين. كانت جميع وسائل الإعلام المحلية تتخبط حول وصوله منذ ما يقرب من شهر. واليوم تتوج اليوم الأول للمعرض لقاء مع أحد المشاهير العالميين.

لم أكن لأتذكر بنفسي هذا الحدث الرائع أبدًا، لكن القاعات الفارغة وحتى الأجنحة ذكرتني بذلك بسرعة. لقد حدث أن النجم العالمي لا يفهم اللغة الإنجليزية بشكل جيد، أو ربما تظاهر بذلك، وأصر على الترجمة من الفنلندية الغريبة، وكان أحد زملائنا من أيام المدرسة، بوهدان، مترجمًا مؤهلًا تأهيلًا عاليًا من هذه اللغة وإليها.

كي لا ألتقي ببولينين وكذلك بوهدان، أسرعت مع الجميع إلى هذا الاجتماع الإبداعي. لم يكن هناك مكان أتكئ عليه في القاعة. بطريقة ما انزويت بجوار فتاة تبلغ من العمر نحو ثمانية عشر عامًا، كانت تنتظر بفرح، راسمة على وجهها ابتسامة وعينين محترقتين، تنتظر ظهور الإله الحي، وتمسك كتابًا رقيقًا على صدرها.

تأخر الوقت، لكن المنظمين كانوا يضيعونه في سرد سيرة هاكولو. احتوت على كل ما يجب أن يكون في سيرة كاتب مشهور: طفولة صعبة، عمل مرهق مبكر وجوع، هجرة، دول غريبة بعيدة، العمل كبحار، بواب في بيت دعارة، علاج ذهني، نساء، رجال، العمل في الصحافة، وأزياء.. إلخ. بالطبع حدثت فضائح وكشوفات صوفية في كل مرحلة، ما أدى في النهاية إلى خمسة أعمال رفيعة جلبت له شهرة عالمية، ولا يعرف أحد سوى الكاتب نفسه إن كانت كلمة واحدة حقيقية من كل ما قيل. في ذلك الوقت رأيت رجلًا يشبه الجرذ لديه فك كبير قوي، وكان بوهدان ينظر إليه في الممر باحترام كبير. من بين أمور أخرى، كان من المدهش كيف أن هذا الكاتب، وهو رجل ذو سيرة رائعة، خلال حياته لم يتعلم أيًّا من أكثر لغات العالم انتشارًا وكيف كان يتواصل مع الناس في كل زوايا العالم حيث ألقى القدر.

أخيرًا، ظهر أسطورة الأدب العالمي. انطباع الإله الحي لم ينطبق عليه. عيناه صغيرتان ضيقتان ماكرتان، لديه سكسوكة هوشي منه[14] المميزة، متقلب في جلسته ملتو الحركات، يرتدي ما يشبه المعطف السميك، تحته بنطال جينز فيه شقوق، ينتهي بحذاء مدبب غير نظيف.

بعد الكلمة الافتتاحية للمنظمين، والتي علم منها الجمهور أن نجمًا بهذا الحجم لم تشهد حضوره الساحات المحلية بعد، أعطيت الكلمة للأسطورة العالمية نفسه كي يتحدث. ترجم بوهدان بأمانة.

- أنا سعيد لوجودي في أوكرانيا، في هذه المدينة الخلابة. إن بلدكم يدخل يسطر إنجازات الحضارة العالمية، ليس فقط بفضل النجاحات في السياسة والاقتصاد والرياضة، ولكن أيضًا من خلال التنمية الثقافية كإحدى المناطق التي تُقرأ فيها الكتب الأكثر مبيعًا في العالم، ومنها كتبي دون شك. بفضل نشر الأفكار والإلهام عبر هذه الكتب، ستغدو حياة أوكرانيا أفضل وأكثر عمقًا. حظًّا سعيدًا، اشتروا كتب هاكولو بولينين!

انفجر الجمهور في التصفيق. مُنح معجبو الكاتب العظيم الفرصة لطرح بعض الأسئلة على النجم. بعد سؤالين حول تاريخ كتابة هذا الكتاب أو ذاك، وقف رجل طويل نحيل يرتدي نظارتين ذو وجه

ذكي:

- سيد هاكولو، لقد قرأت بعناية روايتك الثانية ورأيت أنها تكرر، مع بعض الاختلافات، العمل المشهور عالميًّا لفريدريش دورينمات[15]، وليس فقط بالفكرة أو الحبكة، ولكن أحيانًا بالنص الحرفي. كيف يمكن حصول أمر كهذا؟

بدأت القاعة تهمهم بسخط ناظرة إلى الجاني الذي تطاول على قدس الأقداس.

ومع ذلك، أوقف هاكولو العظيم الموجة بإشارة من يده. نظر باستخفاف إلى الرجل، تمهل للحظة وبدا أنه يشاركه رأيه:

- أيها الشاب، من الجيد أن تكون على دراية بأعلى مستويات الكتابة الأدبية في العالم، لكن المسألة لا تبدو مألوفة بما فيه الكفاية بالنسبة إليك، ولكي تكون مألوفة، عليك أن تعرف أنه في الأدب البشري لا يوجد سوى عدد قليل من الحبكات. حتى شكسبير العظيم استعار جميع موضوعاته من أعمال سابقة لفنانين آخرين. يخلط الوحي الإلهي هذه الحبكات مثل أوراق اللعب، وفي كل جيل، أو حتى جيلين أو ثلاثة أجيال، يمنحها لأفضل شخص قادر على تفسيرها بالتماشي مع ظروف الزمن وحاجات الناس. وزمن فريدريك، لدي الحق في أن أقول إنه انتهى.

انفجر الجمهور في التصفيق مرة أخرى. تسابق القراء، ومعظمهم من الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين ثمانية عشر وعشرين عامًا، للوصول إلى النجم للحصول على توقيعه، ما أدى إلى دفن هاكولو العظيم تحت قرية من النمل الحي.

مستفيدًا من ذلك، أخذ بوهدان نفسًا وصعد إلي.

- حسنًا، أأحببت ذلك؟

- رهيب! أنه لأمر مدهش تمامًا. خاصة هذا الجمهور المخدر المكون من ضحايا الدعاية والترويج. كان من الأفضل لو احترم دورينمات.

- يا له من جمهور -ابتسم بوهدان- أمس، كانت لدينا حالة كلاسيكية. أومأ الكاتب العظيم لإحدى المعجبات التي بدا له أنها تحبه أكثر من الأخريات، وكان ينتظرها في غرفته، كما في ذاك الفيلم الشهير. جاءت، لكن ليس مع حداد، بل مع والدتها، التي خالت أنها أحد أقارب صاحب الموهبة المليونير. كان المشهد قبيحًا جدًّا.

- اسمع، بوهدان، كيف يمكن الترويج لهؤلاء المؤلفين. إذ إن هناك آلاف الأشخاص الموهوبين حقًّا في العالم؟

- كما تعلم، أعتقد أن هناك نوعًا من قوانين الإنتاج؛ لذا فإن إحدى أهم وصفات صناعة أكثر الكتب مبيعًا في العالم هي على وجه التحديد عدم كفاءة المؤلف وسرقة الحبكة، بحيث يبدو ما تقرأه مألوفًا ومشابهًا لما سمعته بالفعل أو قرأته سابقًا. حسنًا، حسنًا، علي أن أركض لأن وقت المؤتمر الصحافي انتهى.

لم يكن لدي ما أفعله هنا أيضًا؛ غادرت القاعة.

14 هوشي منه (١٨٩٠-١٩٦٩): مؤسس دولة فيتنام الشمالية ورئيسها الأول. رائد النهضة القومية في الهند الصينية.

15 فريدريش دورينمات (١٩٢١-١٩٩٠): كاتب ورسام سويسري ألماني. كان عضوًا في نادي القلم في ألمانيا الاتحادية.

٢٨. أندريه

تلقى أندريه عرضًا في مجال الموسيقى، يتضمن أن ينتقل مؤقتًا إلى بلد آخر، إلى جوهانسبورغ، حيث تتوفر جميع الوسائل الضرورية والمعدات الحديثة للتسجيل الصوتي. لم تعجب بوانا هذه الفكرة، وفي وقت لاحق، عندما ناقشها مع مارميديوك وبعض أعضاء الجوقة، رفضها الجميع بشدة.

أوضح دينزيل، وهو أحد المفاوضين، لباسيف: جوقة الكولا الخاصة بنا هي نتاج الأرواح المحلية، وهي التي تمنحنا القوة الإبداعية والإلهام، إذا تحركت من مكانها ستذبل وتتدهور أحوالها.

بعد بعض المداولات، وافق الرجل الجرذ بشكل غير متوقع وبسرعة على هذه الحجة.

بدأ العمل، وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر أضيف استديو تسجيل ضمته المباني المتداعية على أرض أندريه في أونداندا. وفر الجيولوجيون طرقًا للوصول إلى الاستديو وأنشؤوا مركزًا للاتصالات، ما جعل من الممكن، على الرغم من هطول الأمطار لفترات طويلة، إحضار كل ما هو ضروري واستخدامه.

منذ أيام المسوحات الجيولوجية والأنشطة السياحية، اعتاد بازيف ظهور مديرين تنفيذيين جدد ذوي أصوات عالية مزعجة، حتى إنه اضطر إلى حل العديد من النزاعات. ولدهشته، كانت هذه المشاكل تُحل بسرعة وتنتهي تمامًا كما في التقاليد السلافية بجولات شراب في الحانة حيث يحل التآخي على المديرين الآتين من بلدان مختلفة. يوجد شيء ما في هذه الأرض يشبه موطن البوانا.

بعد ثلاثة أشهر، بدأت رقصة اليوكيف مسيرتها المظفرة عبر الكوكب. كانت أشبه بإنفلونزا الطيور. وبعدها بشهرين، حل الوقت المنتظر، وقت جني المال. أتت الأموال كالجداول والشلالات، وكانت أمواله الخاصة وليست استثمارات الجنرال الراحل.

طوال ذلك الوقت، منع أندريه نفسه من التفكير بشأن الجنرال، حتى لا ينفجر في البكاء ويخونه ضعفه. ماذا كانت خطط ليسترونغ فيما يخصه؟ لم يكن يعرف على وجه اليقين، لكنه أدرك بوضوح أن جميع الإجراءات الأولية كانت مجرد مقدمة، وهي الخطوة الأولى لانسحاب بازيف من الظل. وفيما يتعلق بالهدف الحقيقي، حتى خياله الغني بقي صامتًا. في تلك الفترة، حين قضى توندا توفي جنرالان آخران من الدائرة المقربة للبابا. أحدهما في المستشفى بسبب نوبة قلبية، والآخر في منزله بسبب الشيخوخة. كان أندريه يدرك بلا شك أن البابا هو الجاني الفعلي، لكن إدراكه هذا لم يسهل عليه الأمر فلا فرص لديه للانتقام. إلى جانب ذلك، فهم بازيف، عبر فطرته السليمة، أنه يجب أن يكون حذرًا للغاية. يمتلك هذا الوحش أذرعًا طويلة جدًّا ومحققين يمكنهم العثور على المكان الذي تؤدي إليه سلسلة الاتصالات ولن تمنعهم من الوصول إليه أي حدود.

كانت هناك نقطة أخلاقية أيضًا؛ لأن لديه مبالغ كبيرة بالراند والدولار لا تخصه حقًّا، وأدرك أن عليه إعادتها.

وفرت المسيرة المظفرة لرقصة اليوكيف هذه الفرصة الآن. ناقش مرارًا وتكرارًا كل هذه المشاكل مع مارميديوك الذي بات مقربًا منه إلى حد ما، وحاول تبديد أي شكوك:

- بالنسبة إلي أيضًا، بدت الحياة وكأنها قد انتهت، لكن يجب أن ندرك أن الأمر ليس كذلك في الواقع.

- لكن هذه ليست أموالي وأنا مستعد لإعادتها.

- لا يوجد ورثة، وحتى لو كان هناك، ففي بلدي السابق لا يوجد سوى وريث واحد للجميع ولكل شيء، ومالك واحد لكل شيء، وهذا هو الشخص نفسه. كل شيء الآن يعتمد على مدى اهتمام جنرالاتنا بالحفاظ على سرية الأمر. ربما يحسن بكما، أنت وليزي، المغادرة لفترة من الوقت.

- كما تعلم، أنا أومن بحكمته، ويبدو لي أنه ما كان ليرغب في أن نغادر هذا المكان. إلى جانب ذلك، أنت قلت بنفسك إن الأرواح المحلية تحمي الأوكرانيين. دعنا نعتمد عليها. بالطبع، لن يمنع هذا الأعمال التجارية من التوسع إلى البلدان المجاورة، حيث من الممكن ممارسة الأعمال بحرية أكثر أو أقل. بالإضافة إلى ذلك، لم تصل رقصة اليوكيف إلى كل العالم بعد، فمن الضروري حرث تربة عذراء جديدة. أعتقد أن الجنرال سيكون مسرورًا.

٢٩. أنطون

شعرت بالتعب. بالطبع لم يكن لدي شك في عدم امتلاك رغبة للقاء مع بازيف. وصلني العديد من العروض المغرية، لكن فجأة لم أرغب في الذهاب إلى أي مكان. اختفى روبن أيضًا في مكان ما، ولم يكن من الممكن رؤية أي من معارفه. هدأ المعرض تدريجيًّا، واستعد لاستقبال حشود جديدة في صالات العرض، والأقبية، والمقاهي والمطاعم، ومئات الأماكن لتقديم عروض كتب مصحوبة بدلاء من النبيذ، الشمبانيا، الفودكا، الكونياك، ووجبات خفيفة (تذكرت الاسم البولندي لهذه الكلمة "زاغريزكا"). وفي هذه العروض أحاديث بلا نهاية مشحونة بالتباهي، والسخرية، والثناء، والتفاوض، والادعاءات. "ربما أتقدم في السن"؛ فكرت فجأة.

في السابق، ربما لم يكن هذا هو معنى الحياة، فإن تخطي بعض هذه النشاطات بدا وكأنه خسارة لشيء مهم، لكن منزلي الآن وإن كان فارغًا، بدا مريحًا في مقابل كل هذه الضجة. ومع ذلك، كيف لي أن أترك المكان؟

اتصلت بناتالكا، طمأنتني إلى أن كل شيء على ما يرام. لم تكن تعرف شيئًا عن وصول زوجها السابق، ولم أرد أن أقلقها بهذا الحدث. حدثتها عن عدد من اللقاءات والانطباعات. كان ابني على ما يرام أيضًا، وقد أوى منذ قليل إلى فراشه. أوضحت لها أنني لم أقرر بعد ما يجب فعله ومتى سأكون في المنزل. تمنت الزوجة لي أمسية طيبة، وأمرتني بالحرص وعدم احتساء المشروبات القوية. اتفقنا على الاتصال بعد ظهر الغد.

مرة أخرى، ألقيت نظرة حولي، أومأت برأسي إلى اثنين أو ثلاثة من المعارف وتوجهت إلى المنزل. أردت أن أمشي.

هدأت المدينة. كانت الجو دافئًا في الخارج، حيث لا تزال الرؤية ممكنة بوضوح مع أن العتمة بدأت تزحف. أثناء نمو المدينة العملاقة منذ سنوات عديدة، عندما ارتفعت المباني الشاهقة، يبدو أن أحدهم نسي فسحات صغيرة في عدد من الشوارع. فسحات خضراء مع منازل صغيرة من طبقتين أو ثلاث. ظلت واحة هادئة بين عمالقة الإسمنت المتماثلين. يحلو السير قرب تلك الفسحات. كنت أقترب للتو من الحي الذي أسكن فيه عندما رأيت سيارة رمادية اللون عليها بقعة حمراء على اللوحات، وفجأة تذكرت أنني قابلتها عدة مرات خلال النهار. كانت تلك السيارة مركونة أمامي بعشرين مترًا، بمجرد أن استدرت نحو المنزل. خرج منها رجلان ضخمان، وتوجها إلي مباشرة.

- سيد أنطون - قال أحدهما، وأنا أحاول أن أتملص منه.

كان الأمر غير متوقع. وقفت. اختفت كل الأفكار المثالية في مكان ما، وتسلل فجأة شيء بارد ولزج على طول العمود الفقري. نهضت موجة ساخنة لمقابلته، سيطرت على رأسي وجعلتني أجمع قبضتي وأصرخ في الغريبين:

- أي رعونة هذه؟ أتتعقباني؟ أخبر البوانا، أو أيًّا كان، أنني لا أريد أن أسمعه، أو أن أراه أو أعرف بشكل عام عن وجوده. فليذهب إلى الجحيم بكل خططه وأمواله ورغباته.

- بوانا؟ ماذا؟ - وقف الشابان مذهولين، اتسعت العيون.

بدا كما لو أن ردة فعلي كانت غير متوقعة تمامًا بالنسبة إليهما. اختفت الموجة الساخنة في مكان ما، وبدوري حدقت بهما.

- إذًا من أنت؟

- دعني أعتذر عن ظهوري بهذه الطريقة، لكن قبل عشرة أيام أرسلنا إليك دعوة عن طريق البريد والبريد الإلكتروني، واتصلنا أيضًا بأرقام مكتبك وبيتك عدة مرات. في الواقع، كان صديقك هو من اقترح أنه لا توجد طريقة أخرى لجذبك إلى حدثنا.

نزل روبن من السيارة ببطء، وكان مترهلًا جدًّا وابتسم بسعادة.

- ما يجري بحق الجحيم؟

- دعني أقدم نفسي. نحن موظفان في معهد "ترانسمارغينال" ومن أتباع منظمة وسام النجمة الزرقاء. بفضل مزاياك الاستثنائية أنت والسيد روبن، تتشرف إدارة المعهد بدعوتكما، ضيفين مكرمين إلى حفلنا الذي يقام الآن. في الواقع، لقد نظم حفلنا على شرفك.

- عن أي مزايا تتحدث؟ يا له من شرف. -صدمتُ للغاية. الشيء الوحيد الذي كان بإمكاني فعله هو الضغط على نفسي- هذه بالتأكيد خدعة بازيف، أليس كذلك؟

- من هذا؟ - يبدو أن الداعي تفاجأ بصدق.

- حدث الأمر بالفعل من دون بازيف، بصراحة لا علاقة له بالدعوة، -قال روبن، وقد بدا أن الموقف استهواه بشكل لا يصدق، وقد أظهرت ابتسامته العريضة أسنانه البيضاء- دعنا نذهب أنطون، ولِم أنا مكرم أيضًا؟ سأشرح لك في الطريق.

٣٠. أندريه

كان على بازيف أن يحيط نفسه بجيش من المحاسبين والاقتصاديين والمديرين التنفيذيين والمسوقين وغيرهم من المهنيين. تدريجيًا، تمكنوا من فتح فروع في بلدان أخرى، وانخرطوا، في الواقع، في ما يمكن أن يجلب المال. في ذلك الوقت ظهر شعار الأسد. كان أندريه حريصًا على الأعمال للغاية، وكان محظوظًا، إذ تضاعفت الأموال ولم تكن هناك خسائر تقريبًا.

لقد كان محظوظًا مع شقيقات ليزي وأشقائها، خاصة مع لوي لاتاتا الموثوق فيه، الذكي وسريع البديهة، وأصبح "يده اليمنى". كما حظي باحترام صادق من حميه والد ليزي، الذي لم يدرك جميع خططه لكنه تمتع بنجاحات صهره، وكان يستشيره إذا لزم الأمر ويعلق الآمال عليه. بالمناسبة، كانت علاقاته السابقة في الدوائر البيروقراطية مفيدة، لذلك لم تكن عصا الجنرال السحرية، ما مكنه تجاوز العقبات الموجودة.

خصص أندريه جزءًا من ثروته المتزايدة لتحسين أونداندا، ما أكسبه المزيد من حب السكان واحترامهم. بدأت حلقة الأصدقاء تنظر إليه بعيون جديدة، كانوا سعداء بنجاحاته. بدا الأب تاراس سعيدًا بالزيادة في عدد السكان والرعية. كانت كاترين كذلك، وقد بذلت المزيد من الجهود في العمل مع السكان التي لم يفهم الأب تاراس كنهها، والتي قال عنها مارميديوك إنها قربت أوندادا من بعض التقاليد الأوكرانية. استمرت الاحتفالات وكانت الأغاني الأوكرانية تفرح روح أندريه كثيرًا.

توسع العمل أكثر من ذلك بكثير، وكذلك الرحلات الخارجية والاجتماعات والمفاوضات وغيرها من الأمور الملحة، التي كانت مألوفة لديه منذ التسعينيات، كما نظم مع زوجته بعض الرحلات المفضلة في التلال عندما كانت الفرصة تسنح، ما جلب الكثير من الفرح والسرور، وذكره بسنته الأولى التي كانت شبه خالية من الهموم.

في أحد الأيام، تأخر أندريه قليلًا في العودة إلى المنزل من نزهة. أوقف السيارة بالقرب من منزله. أزعجه صوت ما في محركها، ولتبديد الشك رفع غطاء المحرك. ركضت في تلك اللحظة فتاة إلى الشرفة، كانت ممن يساعدن ليزي في الطهي، وصرخت بصوت عالٍ:

- من الجيد أنك هنا، بوانا. أسرع إنهم سيتقاتلون.

فوجئ بازيف. ركض بسرعة عبر الردهة إلى غرفة المعيشة، حيث سمع أصواتًا هستيرية. من خارج الباب، انفتح المشهد أمامه كما لو كان على خشبة مسرح ما. في الزاوية، وقف مارميديوك ودينزيل وشخص آخر اسمه غوردي جنبًا إلى جنب، كما لو أنهم استجوبوا للتو. كان العزم والعناد مرسومين على وجوههم. كانت كاترين شاحبة الوجه مغتاظة تصرخ في وجه الأب تاراس، الذي صاح بدوره فيها وقد غدا وجهه أحمر:

- كل الحق عليك. تتلمذوا على يدك. لولا أفكارك، لما فكروا في هذا. يجب أن يخضع كل شخص لأمر الله.

- لكل فرد حرية الاختيار. – قالت كاترين التي لم تسمع خصمها.

كانت ليزي مرتبكة صامتة، تقلب طرفيها بينهما.

- ماذا يجري هنا؟ - قاطعهما بازيف.

صمت الجميع وانتبهوا إلى وجوده. طال صمت لا يكسره سوى التنفس الثقيل.

خطا مارميديوك إلى الأمام:

- بوانا أندريه، نحن وفد يمثل أهل أوندواندا، نود أن نعلمك والعالم أجمع أنه من اليوم نرغب في أن نصبح أوكرانيين.

- ماذا؟

- نعم، نحن ندرك أن الأمر يفرض التزامات معينة ويغير طريقة حياتنا؛ لذلك من أجل الوصول إلى المبتغى، نحن على استعداد لاجتياز أي اختبار وإثبات.

- ماذا! – فغر أندريه فاه.

- لقد فقدوا عقولهم -صرخ الأب تاراس مرة أخرى- من هم الأوكرانيون؟ في الحقيقة، إنهم يعيشون في منازل تحت الأرض، ويزرعون البطاطس، ويغنون، ويقرؤون شيفتشينكو[16] وليسيا أوكراينكا[17]. إن تعلم الأوكرانية لا يمنحكم الحق في أن تكونوا أوكرانيين! انظر إليهم!

- ومن يعطي هذا الحق؟ إذا كانت الحالة الذهنية، فهذا كل شيء، وأما لون البشرة فلا أراك عنصريًّا - واصلت كاترين صراخها.

- اعذرني! -تدخل مارميديوك- في إثيوبيا، يعتبر ما يقرب من ربع السكان يهودًا، ولون بشرتهم هو لون بشرتي نفسه. لماذا لا نستطيع أن نكون أوكرانيين؟ علينا أن نمر في الطقوس، أن نجتاز الامتحان. نحن نختار البوانا ليمتحننا، وبعد ذلك سيرسل وفدًا منا إلى الوطن الجديد.

اختنق الأب تاراس، شخر وهو يلهث في الهواء.

- لكن ماذا عن الأرواح المحلية والأسلاف والتقاليد؟ - الشيء الوحيد الذي تمكن أندريه من قوله.

- الأرواح لا تمانع. لقد اتفقنا مع كبارنا. وجدوا أن الأرواح في هذا المكان مؤيدة لأوكرانيا - رد دينزل بثقل.

قفز الأب تاراس من جديد وصرخ:

- كله من تعاليم كاترين حشت بها رؤوسهم الحمقاء، إنها التي تحفزهم وتعلمهم الأوكرانية.

- ماذا عن ظهور البوانا هنا؟ ومجيء كاترين ومجيئك أنت شخصيًّا؟ وأغانيك؟ وماذا عن رقصة اليوكيف والكولا؟ ماذا عن كنيستك؟ هل هناك شيء عرضي في العالم؟ - رد عليه دينزل بحزم.

- إنهم يتحضرون للكوبالا[18]، ينسجون أكاليل الزهور، ويشاركون في الرقص -قالت كاترين بصبر فارغ- بشكل عام، ما الذي يجعلنا أوكرانيين؟ كيف يمكنك أن تحرم شخصًا آخر مما ترغب فيه بشدة؟

- وفي الحقيقة، ما الذي يجعلنا أوكرانيين، أينما كنا في العالم -قال بازيف بهدوء- ربما مجرد حبنا لأوكرانيا؟

صرخ الأب تاراس ثم شتم بالأيرلندية، وخرج من الغرفة صافقًا الباب وراءه.

- ربما يريد بعضكم أن يصبح أيرلنديًّا؟ - تمكنت ليزي أخيرًا من قول كلمة.

نظر الجميع إلى الباب المغلق.

16تاراس هريهوروفيتش شيفتشينكو (١٨١٤-١٨٦١): كبير الشعراء الأوكرانيين الملقب بالكوبزار (عازف الكوبزا)، رسام، ومفكر. جسدت أشعاره ولوحاته حياة الأوكرانيين الصعبة وعبرت عن توقهم للحرية.

17ليسيا أوكراينكا (١٨٧١-١٩١٣): كبرى الشاعرات والكاتبات الأوكرانيات. من أعمدة الأدب الأوكراني إلى جانب شيفتشينكو وإيفان فرانكو. ناشطة اجتماعية، مدافعة عن حقوق المرأة.

18كوبالا (يوم إيفانوف، إيفانوفشينا، إيفان كوبالا): هو عيد شعبي قديم لدى السلاف الشرقيين، يُحتفل به إلى الآن في ٢٤ يونيو (٧ يوليو وفق التقويم الجديد). يُكرس وفقًا للباحثين للانقلاب الصيفي وتألق الطبيعة. يتزامن في التقويم الكنسي مع يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان. تبدأ الاحتفالات الجماعية بهذا العيد في الليلة التي تسبقه، وتتضمن الطقوس ارتداء الأزياء الشعبية واعتمار النساء أكاليل الزهور، إشعال النار، القفز فوقها، التجوال الليلي، والارتماس في الأنهر.

٣١. أنطون

اصطحبونا إلى منزل جميل من ثلاثة طوابق. في جزئه الخلفي حديقة على جانبيها لافتات مملة. في السابق، لم أجد نفسي في هذا النوع من البيوت، وللمرة الأولى فوجئت بشعور دافئ وبجمال المكان هنا. احتشد بعض الناس عند المدخل، صمتوا كلهم عند ظهورنا. كانت الشرفة مبطنة بسجادة حمراء، والممر مزينًا بأعمدة ذات كرات ذهبية. اتضح أنهم كانوا ينتظروننا. ضيفا شرف، رافقانا على طول الممر إلى طاولة كبيرة مليئة بالناس.

بدا لي أني رأيت بعض الوجوه مألوفة، على الأقل محام واحد أعرفه. كان التعرف إليهم صعبًا، ارتدى بعض الحاضرين عباءات غريبة، وبعضهم الآخر كان في أردية. كانت النساء في ملابس تقليدية تمامًا، يتزين بمجوهرات مصنوعة من الأحجار الكريمة، بدت حقيقية.

لم أعلق آمالًا على روبن. لقد نام طوال الطريق في السيارة، والآن، بعد استيقاظه سار على السجادة الحمراء بثقل، مثل السائر أثناء نومه. إما أنه هنا للمرة الأولى، أو أنه لا غير مبال.

نظرًا لخبرتي الواسعة في المآدب وحفلات الاستقبال، أدركت أن الحفل مستمر منذ أكثر من ساعة، إلا الحدث الرئيس لم يأت بعد. أهو مرتبط بحضورنا؟ أردت أن أتجاهل هذه الفكرة. انتهى الممر بنا عند المنصة، حيث كان ينتظرنا عدد من الرجال المسنين الذين يرتدون أردية مطرزة، يرأسه شاب يرتدي قبعة مدببة غريبة. تفرق الجميع عنه فتقدم ليصافحنا.

- المعلم - قدم نفسه، وكأن هذا اللقب يعني لي شيئًا.

شعرت كأنني بطل خاسر أحضر عرضًا أحمق آخر، أو أن المفاجأة كانت خادعة. ذهبت أفكاري عبر مسار تطوري، وتراوحت بين الخطف على أيدي رجال العصابات إلى مقلب أخرق، إلى بيت النخبة المجنونة المنفصلة عن الواقع.

لكن من الواضح أن روبن كان سعيدًا ومرتاحًا. فجأة، عُزفت الموسيقى الرئيسة وتلاشت، وتحدث الشخص الذي أطلق على نفسه اسم المعلم:

- والآن، أيها السيدات والسادة، العلماء، أعضاء المنظمة، الصحافة، الضيوف المدعوون، ننتقل إلى الحدث الرئيس لاجتماعنا اليوم.

صفق الحشد؛ ظهر من العدم فجأة رجال سمينون ذوو وجوه بلهاء، ما ردني قسرًا إلى فكرة المقلب، وساد الصمت التام.

- كما تعلمون، تبرز في كل عام مهمة أساسية جديدة أمام علماء منظمتنا، مرتبطة بروح مجتمعنا، مع التغلغل في أساس الحياة والسعادة. في كل عام، تواجه أفضل العقول هذا التحدي. هذا العام، كانت المشكلة معقدة للغاية لدرجة أن الإدارة العليا كانت في حال من اليأس. لن أفصح ولا يحق لي الإفصاح عما يجري البحث عنه بالضبط، ولكن بفضل هذا الشخص، الذي لم يكن يعرف حتى الآن بوجود المعهد والمنظمة، بفضل فرضية جريئة ورائعة طرحها، تلقى بحثنا زخمًا جديدًا لتأكيد هذه الفرضية وتطويرها من قبل باحثينا. والفضل في ذلك يعود إليه. يقف أمامنا المؤرخ البارز السيد أنطون سولومكو، وهو يستحق هذا التكريم! وسام النجمة الزرقاء!

على هدير القاعة، فتح المساعدون الصندوق، وعلق المعلم قرصًا صغيرًا باهتًا على سلسلة حول رقبتي.

- أتمنى، سيد أنطون، أن أراك في صفوف المنظمة في المستقبل القريب.

صدحت الموسيقى الصاخبة مرة أخرى.

كان التعبير على وجهي غريبًا لدرجة أن روبن دفعني تحت الكوع وركلني بخفة. كان صديقي سعيدًا بصدق ومبتهجًا بعجزي، لكنني كنت مرتبكًا بصراحة ولم أكن أعرف ماذا أقول أو أفعل.

- من فضلكم، أيها السادة، لنتناول عشاء نخبويًّا صغيرًا على شرف فارس الوسام الجديد. - أنهى المعلم الحفل.

بمجرد أن وصلنا إلى الردهة، أمسكت روبن توسلت إليه:

- لن أذهب إلى أي مكان حتى تشرح لي ما يحدث.

- انتظر لحظة -التفت إلى المشرفين وجذبني إلى الحائط- هل تتذكر الحفلة الأخيرة عند ستانيسلاف؟ عندما اجتمعنا للمرة الأولى في "الإوزات الاثنتي عشرة" ثم اصطحبنا إلى صديقه في مطعم خارج المدينة؟

- نعم.

- هل تتذكر كيف تناقشنا بحدة في الليلة التالية حول الروح والمادة؟

- أنت وأنا، في كل مرة حين نشرب نتناوش حول الروح والمادة، وكذلك المشاكل الفلسفية الأخرى.

- لكنك في ذلك الوقت تناولت موضوع التناسخ؟

- التناسخ؟

- حسنًا، لقد كنت في حالة سكر تمامًا وأردت أن تكون لك اليد العليا في المناقشة بأي ثمن، وعندما يتعلق الأمر بالتقمص، قلت إنه بالنسبة للتناسخ لا يمكن أن يكون الوقت أحادي الاتجاه؛ لأن هذا المبدأ نفسه، إذا كان موجودًا، يجب أن ينكر قوانين الفيزياء المعتادة. أي إن تجسيدًا جديدًا لشخص ما لا يجب بالضرورة أن يحدث بعد اختفاء الأول، بل ربما قد يحدث حتى في الماضي.

- يا إلهي، هل قلت ذلك حقًّا؟ كم شربنا آنذاك؟ أتتذكر كل هذا؟ لقد كنت سكران أكثر مني.

- حسنًا، لا أذكر جيدًا. لكن صاحب المطعم من الشخصيات المؤثرة في المعهد والمنظمة، وقد استمع باهتمام إلى تلك المحادثة، وهذه المشكلة بالذات هي ما كان يؤرقهم جميعًا العام الماضي.

- من هم؟ أي نوع من الهراء هذا؟ ما هو المعهد؟ المنظمة؟

- هذه مؤسسة دولية، مركزها في سويسرا، تشبه المحفل الماسوني، وهي عصرية جدًّا وممولة بشكل جيد للغاية، وإذا لم تكن لديهم اكتشافات جديدة، رائعة مثل اكتشافك، فسيبدأ تدفق التمويل في النضوب.

وضع بهذه العبارة كل شيء في موضعه. علم متقدم رائع، محفل ماسوني، وتدفقات مالية، محتالون ومهرجون. حسنًا! عندما يُصنع التاريخ، يجب أن يكون المؤرخ مشاركًا.

أخيرًا، فهمت ما الذي يحدث، أطلقت سراح روبن وعدت بقوة متجددة بدفع من الوسام الذي أتقلده.

- حسنًا! السيدات والسادة، الفارس الجديد وصديقه مستعدان لمشاركتنا احتفالنا المتواضع باكتشافنا ووسامنا.

٣٢. أندريه

- لو قللت من نشاطاتك مع سياحك لما بدوت مرهقًا إلى هذا الحد. – عاتبت ليزي زوجها، وهي تقف أمامه طاوية ذراعيها على خصرها كما لو أنها في الحلبة.

- ما بالك؟ ماذا تقصدين؟ أنا أذهب إلى هناك مرة واحدة في الشهر.

- وأمس الأول؟ مع تلك العجوز؟ أخبرونا بما كان.

- عم تتحدثين؟ ذهبت لأتفقد المجمع، وجدت مجموعة من السويديين في يوم عطلتهم الأخير، كانوا يستجمون إذا جاز التعبير. أجسامهم موشومة بالكامل. بدت مثل جدران تتناثر عليها كلمات بذيئة. كيف سيعيشون مع هذه الأجسام إذا ذهبت هذه الموضة وأتت أخرى؟ كانوا جالسين يحتسون بعض كؤوس من الكوكتيل ويستمعون إلى موسيقى رقصة اليوكيف. أيمكن الاستماع إلى هذه الموسيقى والاسترخاء؟ وجدت أن تلك المرأة العجوز وحدها كانت ترغب في الرقص، كانت تدعو شابًّا من هنا ورجلًا من هناك، إلا أن أحدًا لم يرغب في مراقصتها. توجهت إليها، وعرفتها كيفية الرقص على ألحان هذه الموسيقى. نظر الجميع إلينا، كانوا معجبين جدًّا بالرقصة إلى درجة أنهم فتحوا عيونهم على وسعها، ثم صفقوا بحرارة. بعد ذلك خرجت على الفور، أما هم فتوجهوا إلى الحافلة لتقلهم إلى الديسكو. هذا كل ما في الأمر.

- نعم. لا بأس. لن أتخلى عنك لأحد. اسمع، لا تشعر بالإهانة، لكنك لم تخبرني الكثير عن زواجك الأول. أما أما زلت متألمًا؟

- بصراحة، مؤلم، لكن قليلًا. جراحي تلتئم، بالمناسبة، أعطيتني فكرة. أخيرًا، صرنا أنا وأنت من الأثرياء، ولا يزال لدي أصدقاء في أوكرانيا، لكل منهم خططه الخاصة وأعماله. قد يكون علينا مساعدتهم قليلًا، ولكن علينا القيام بذلك بطريقة مواربة، وليس بطريقة غبية مثل: خذ هذا المبلغ من المال، ونتمنى لك التوفيق. أقصد بشكل أكثر مهارة، يمكن أن نساعدهم في حل بعض المشاكل التي لا يستطيعون حلها بأنفسهم، أو أي شيء من هذا القبيل.

كان الدم ينبض في رأس أندريه حتى شعر وكأنه سينفجر. استحوذت عليه هذه الفكرة الجديدة وبثت فيه النشاط. والآن بدا متأكدًا من أنه لن يترك هذه المسألة حتى يُشبعها تفكيرًا، ثم ينفذ ما توصل إليه.

نظرت ليزي إلى زوجها باهتمام. كانت تدرك جيدًا هذه الحالة، عندما تستحوذ عليه فكرة، فتبث فيه الطاقة، هذا الإعصار الصغير الذي يدور في رأسه. وكانت قد خبرت أيضًا أن النتائج قد لا تتطابق مع خططه الأولية. قالت له أو لنفسها بهدوء: "دعنا نرى ما الذي سيحدث".

غادرا الغرفة معًا، فوجدا مارميديوك، قادمًا نحوهما عبر الممر.

- أحتاج إلى هذا هو الأفروأوكراني. هيا بنا إلى المكتب.

في المكتب، دفع أندريه الرجل إلى الحائط:

- اسمع، أنا مثلك لم أتمكن بعد من تهدئة نفسي بعد. لم أكن أعرفه كثيرًا، لكنني أشعر وكأننا، أنا

وجنرالك، ولدتنا شجرة واحدة. ومع ذلك، فإن الحزن يمضي والحياة تستمر. أنا بحاجه إلى مساعدتك. من قام بالضبط بحل القضايا الحساسة للجنرال؟ لا تشعر بالإهانة، لكنك بالتأكيد لست ذلك الشخص. هنا لا تحتاج فقط إلى الخبرة والإرادة، بل تحتاج أيضًا إلى المعارف والمهارات، بل حتى الانتماء إلى منظمة سرية ما. لا أحد ممن أعرفهم من حاشية الجنرال يناسبه هذا الوصف. أنا أيضًا بحاجة إلى رجل كهذا.

- كيف حزرت؟ - نظر ارميديوك إلى أندريه بدهشة مصحوبة ببعض الخوف:

- أرى أن سيدي لم يكن مخطئًا فيك.

- إذًا، من هو؟

- اسمه سيريل جونسون، ليس شابًّا، موظف سابق في مكتب التحقيقات الفيدرالي أو وكالة المخابرات المركزية. يقضي في مويبو نحو ستة أشهر في السنة، وبقية الوقت في أماكن أخرى. لا أعرف بالضبط ما الذي يبقي رجلًا كهذا في هذه المدينة. عهد إليه السيد ليسترونغ بأدق الأمور المتعلقة بالعلاقات والمعلومات الدولية. على حد علمي، لم يرفض قضية ولم يفشل أبدًا. ومع ذلك، لا يمكنني حتى تخيل مقدار الأموال التي كان يتقاضاها منه. بالمناسبة، ذلك الكم الهائل من المعلومات عنك، بوانا، وصلنا من خلاله.

- واضح. مهم. أنا أحتاج إليه. هذه المهمة على عاتقك مارميديوك!

بعد أسبوع، زار السيد جونسون الزوجين، وبعد أسبوع آخر كان، هو وأفراد طاقمه المتنوع، يعملون في خدمة بازيف.

٣٣. أنطون

دار الوقت في دوامة، مصحوبًا بانطباعات حادة، وكأن ستارة ما قد أرخيت على التفكير وردته إلى الوراء. أو ربما، على العكس من ذلك، كأن هذه الستارة رفعت فلم أعد مسؤولًا عن أي شيء، وسمحت للظروف بتسييري بحرية، أو قمت بنقل قراراتي وأفعالي إلى شخص آخر. كان ما بقي من أحداث تلك الليلة في الذاكرة مجرد شظايا، كان بعضها يصطدم بشدة مع بعضها الآخر. أتذكر بالضبط أنه كان علي الاتصال بناتالكا مرة أخرى وأن أقول لها ألا تقلق. في العادة، لا يطمئنها وجود مخرادزه إلى جانبي، لكنها لم تقل شيئًا هذه المرة، أو ربما ببساطة لم تستطع فعل شيء حيال ذلك، وستقوم لاحقًا بتعويض هذه الفرصة المضيعة لتوجيه نصيحة إلي.

لم أشعر كيف انتقلنا من المائدة إلى الحمام البخاري. لم أستطع تذكر لحظة الانتقال على الإطلاق، لكنني تذكرت بوضوح شديد المحادثة الحميمة عندما جلسنا على الشراشف نحن الثلاثة، أنا وصديقي والمعلم، لافين أجسامنا بالمناشف نحتسي البيرة. سأل باهتمام:

- بما أننا بتنا أصدقاء الآن، دعني أسألك عن هذا التمازج الغريب: روبن مخورادزه وكييف؟

بما أن روبن نفسه كان على الأرجح في حالة النيرفانا وشعر بتيار الكارما يمر في تلك اللحظة عابرًا جسده الميتافيزيقي، كما يتضح من جفونه نصف المغلقة، أوضحت:

- أسلافه ينحدرون من عائلة أمير جورجي، انتقلوا للعيش في أوكرانيا في العهد القيصري. منحه اسمه والده، الشيوعيان المتشددان، تيمنًا باسم بروبن ابن الشيوعي الإسباني الشهير دولوريس إيباروري. وكان إرثه الشيوعي من جهة والأميري من جهة أخرى هو الذي شكل شخصيته الموهوبة. هو كسول بالمجمل، لكن في بعض الأحيان عنيد ومثابر يسعى لتحقيق بعض الأهداف. ربما تكون جذوره الجورجية مسؤولة عن القدرة على التحدث بمهارة لساعات حول أي موضوع، خاصة على المائدة.

- يقولون إنه هو الذي دفعك إلى هذا الاكتشاف الرائع الذي نحتفل به اليوم.

- اختار روبن مساره الفلسفي بناءً على سمات الشخصية ونظرة المتعة للحياة. فيلسوفه المفضل هو الكندي مارشال ماكلوين. لقد جادل، على وجه الخصوص، بوجود خلل في إدراك العالم عبر فصل المشاعر في الحضارة الحديثة. يحدث التحيز في اتجاه هيمنة الرؤية على المشاعر الأخرى، إلى حد ما يشوه ذلك صورة العالم، على عكس الصورة الأصلية. على سبيل المثال، في العصور الوسطى، توصل روبن إلى استنتاج غير متوقع من هذا القبيل: إذا قمت بقمع هذه الهيمنة العقلية بمساعدة الكحول، ففي لحظة معينة سينكشف إدراك العالم بشكل صحيح بكامل أصالته. في الممارسة العملية -أشرت باصبعي نحو رفيقي- يبدو أنه في هذه الحال الآن، ثم تبدأ مرحلة أخرى عندما يخيفني باكتشافات وكشوفات جديدة، وهذا يثيرني، وأبحث تلقائيًا عن حجج معاكسة.

- ماذا عن التناسخ؟

- لا أتذكر كيف بدأ الحديث آنذاك. أخبرته فقط أن المبدأ والفكرة نفسها تنتهكان قوانين الفيزياء المعروفة. بما أن هذا يحدث، فلماذا إذًا ينبغي الإبقاء على القوانين الأخرى؟ دعني أشرح. إذا كان

هذا مستحيلًا من وجهة نظر الصورة العلمية الحديثة للعالم، وتعتقد أن العملية مستمرة في الوقت نفسه، فلماذا لا يتعين على هذه العملية انتهاك القوانين الأخرى، ولا سيما الاتجاه الواحد للوقت؟

- لقد انكب أفضل عقولنا على التمحيص في هذه المسألة واستغرقوا عامًا تقريبًا للوصول إلى الاستنتاج التالي. ومع ذلك، ما كان لهم أن يتخذوا الخطوة الأخيرة قبل اكتشافك. قارنا بين شخصيات تاريخية مختلفة، بعض أولئك كان سابقًا لعصره لدرجة أنه لا يمكن تفسير الأمر بالصدفة أو بالظروف. والآن، أخيرًا، اتضحت المسألة وبات كل شيء في موضعه. يمكن أن تظهر سمات الشخصية ليس في وقت متأخر من الحياة، ولكن في وقت مبكر. وهذا يفتح آفاقًا جديدة ضخمة للبحث، وتوجهات جديدة للتمويل، ونحن مدينون لك بكل هذا.

ثاب روبن إلى رشده وأنصت. أدركت أنه مستعد للانغماس في معركة فلسفية. سألت بسرعة:

- وماذا لدينا بعد ذلك؟

تثاءب المعلم:

- نعرف رغباتك. سنذهب لاصطياد السمك في الصباح. احصل على قسط من النوم في السيارة.

٣٤. أندريه

غدا أول مهرجان سينمائي دولي ينظم في بلدة روكوبتشي الصغيرة في البلقان حدثًا محليًّا ضخمًا. أُنفق الكثير من الجهد والمال والوقت على التنظيم والتحضيرات لاستقبال نجوم عالميين وصانعي الأفلام والشركات للتعرف إلى المنتجات السينمائية الأحدث في بلد غير معروف جيدًا على مستوى العالم. تجاهل كثيرون الحدث لمعرفة كيف ستجري الأمور بعده، وما إذا كان المهرجان الأول والأخير هناك، لكن الذين لبوا الدعوات كانوا كافين لخلق ذلك الجو الإبداعي المنعش في المهرجانات، ومن دونه لا يمكن لأي حدث من هذا النوع أن يُنظم على الإطلاق.

في المهرجان، توجه الاهتمام إلى قرار لجنة التحكيم منح الجائزة الكبرى إلى مخرج أوكراني غير معروف، بدا بنفسه مندهشًا من اختيارها له. تسببت هذه الجائزة في انفجار الأحاديث والشائعات؛ لأن عددًا من الأفلام لمخرجين معروفين كانت مرشحة للفوز. ومع ذلك، فإن الشائعات والمراجعات المطولة والتكهنات في الصحافة غذت الاهتمام العام بعمل ذاك الفنان، الذي لم يكن يافعًا. وقد سمحت له أموال الجائزة والعقود التي حصل عليها بتصوير فيلم جديد، خلال عام ونصف العام، كان يحلم به طوال حياته.

وفي غضون عامين، في مهرجان آخر أكثر شهرة وعراقة في إسبانيا، نال فيلمه إحدى الجوائز، لم تكن الجائزة الكبرى، لكن على الأقل صار مزاج الجمهور والنقاد أكثر ترحيبًا بالأوكرانيين. فتح ذلك أمامه بوابة صغيرة ليست نحو الشهرة، ولكن للاعتراف بأنه كمخرج لم يشارك عن طريق الصدفة في الأحداث السينمائية الدولية، وأن عمله يستحق الاهتمام.

عندما أعلن اتحاد المحامين في الولايات المتحدة عن مسابقة لعشر منح دراسية أمام الراغبين من أوروبا الشرقية والوسطى للحصول على تدريب لمدة سنتين، أتت ردة فعل المجتمع القانوني الأوكراني مشككة إلى حد ما. جعلت الكثيرين من المتقدمين إليها يائسين من احتمال فوزهم بها مع وجود منافسين لهم من البلدان المتقدمة. طرحوا على أنفسهم سؤالًا: هل الهدف يستحق الجهد المبذول؟ تردد أحد محامي كييف العاديين لفترة طويلة في جمع الوثائق اللازمة، ثم قرر أنه لن يخسر شيئًا، وأقنعه بذلك أصدقاؤه. تبين أن قوته تكمن في مستواه العالي في اللغة الإنجليزية، التي يدين بها لمدرسته. جمع كل ما هو مطلوب من وثائق وأرسلها قبل الموعد النهائي. قدم المستندات ونسي الأمر. أتاه بعد شهر واحد خبر رائع. من بين مئات المرشحين، ربح في المسابقة فانهمك في حل مجموعة من القضايا بناء على ما سيقود إليه هذا التدريب من تغيرات ستطرأ على حياته. مرت سنتان سريعتان، واتسع الأفق بشكل كبير أمامه بشكل كان من الصعب تخيله. كانت فكرة واحدة تجول في خاطره القلق: من يحتاج إلى كل هذا في أوكرانيا؟ إلا أن تغيرات طرأت على الوضع السياسي مرة أخرى في البلاد، وحين عودته غدا المحامون المجازون ذوو الخبرة والتدريب الغربي ضروريين للغاية. لم يمكنه مستواه ارتداء جلباب القضاء فحسب، بل من تولي منصب رفيع، وليس في محكمة محلية، لكن على مستوى الدولة، محققًا مسيرة مهنية مذهلة. لماذا اختاره القدر؟ ظل الأمر لغزًا.

بات عدد محدود للغاية من الكتاب الأوكرانيين المعاصرين مشهورين في الغرب. حققت الجهود المحمومة للناشرين الأوكرانيين في الترويج لمنشوراتهم الأدبية بعض النجاح في حالات استثنائية.

أولئك الذين كانوا محظوظين بما يكفي لانتشار كتبهم في الخارج شقوا طريقهم بأنفسهم إلى دور نشر مشهورة أو غير معروفة، وبحثوا عن المحسوبية والمعارف والشخصيات الموثوقة التي يمكنها التوصية بهم، وإجراء المقابلات وما شابه ذلك. ظلت معظم الكتب غريبة في الغرب، تثير اهتمام دائرة ضيقة من القراء المحتملين وأبناء الشتات.

كان الأمر الأكثر غرابة هو ظهور كاتب أوكراني غير معروف تقريبًا، قررت دار نشر محترمة في مدينة لفيف إصدار كتاب له بعدد غير كبير من النسخ، لاقى صدى جيدًا في الصحافة وتعليقات إيجابية من النقاد على مستوى ما، وحظي باهتمام عام ملحوظ، ثم حدثت معجزة ما، فكان أن التفتت إلى كتابه دار نشر أوروبية محترمة. وقعت معه عقدًا وبثت في المجتمع الأوروبي "عددًا محدودًا" من النسخات، وفق معاييرها، فطبعت أربعة آلاف نسخة. كان لينتهي كل شيء مع نفاد النسخ من السوق، ويحظى باهتمام ضئيل من القراء لفترة ما، كما يحدث عادةً مع كتب أولئك الذين انتهى بهم المطاف في كتالوجات الناشرين الأوروبيين، ولكن ليس في هذه الحالة. في الطبقة الأعلى من مجتمع الناشرين يوجد برنامج تلفزيوني عريق قيم، يبث في أوقات الذروة، تتضمن فقراته تقديم مراجعات الكتب الأدبية الحديثة النشر، وهي محصور بالكتب الأكثر أهمية. تقدم البرنامج سيدة يعرفها معظم الناس في العالم الأوروبي. كان أصحاب جميع دور النشر، دون استثناء، يحلمون أن تتصفح أحد كتبهم أمام الكاميرا؛ لأن هذا يوفر تلقائيًّا مبيعات إضافية وجمهورًا واسعًا من القراء والمشترين. بالطبع، في بلدان ما بعد الاتحاد السوفيتي، سيكون برنامج كهذا مشبعًا بالفساد بنسبة تصل إلى مئة في المئة، أما في أوروبا ذات الشعر الرمادي فقد كان مستقلًّا تمامًا وغير قابل للفساد؛ لذلك، في أحد برامج الأحد، وبطريقة غريبة، ذكرت هذه السيدة كتاب المؤلف الأوكراني غير المعروف. ذكرته بشكل عرضي، ولكن بإيجابية إلى حد ما، تبين أنها كافية لنشر الاهتمام حوله.

لم يصبح الكتاب أفضل بائع. بصراحة، لم يكن كتابه تحفة فنية. ومع ذلك، طبعت دار النشر عشرة آلاف نسخة أخرى، ثم عشرين ألف نسخة. ودُعي المؤلف إلى جولة ترويجية، وظهرت صورته في الصحف الإقليمية. ونظرًا لأن هذا المؤلف كان ينتقد موهبته بشدة. كانت تعابير وجهه في تلك الصورة كأنه يسأل: "ما الذي حدث؟".

في المحصلة، ارتفعت مستويات النجاح والثروة لدى مجموعة صغيرة من الأصدقاء، الذين كانوا في فصل واحد في المدرسة، بشكل لا يمكن تفسيره. وحده من يتمتع بقدرات تحليلية متميزة وإمكانية الوصول إلى مصادر المعلومات يمكنه ملاحظة ذلك، ولكن هل سيكون هذا الشخص مهتمًّا بالمقارنة بين هذه الحقائق؟

"من يتحكم بمصيرنا وكيف؟ هل نحن نجر خيوطه أم أن شخصًا ما فوقنا يمسك بها؟ أهناك من يهمس له ماذا يفعل وكيف؟ أهو يضحك علينا نحن النمل البشري باحتياجاتنا وتطلعاتنا وطموحاتنا ومآسينا؟ وكيف يختلف هذا عن التدفق المهيب الهائل للأسماك التي تضع بيوضها". دارت الأفكار في رأس بازيف وهو يهم في دخول الكولا.

في الآونة الأخيرة، كان مغرمًا جدًّا بالتواجد هنا. المكان ملائم جدًّا لرقصة اليوكيف غريبة الحركات. توصله حركاتها النشوة حين تتجول أفكاره من دون حسيب ولا رقيب في الصخور والدوامات، وهكذا ولدت في رأسه مخططات عجيبة جديدة رغمًا عن رغبته وإرادته. خطط

أسرته، وألهمته وأخضعته لها، وأجبرته على العمل، خطط مليئة بالمعاني العميقة لحياته التي اتخذت مسارًا إيمانيًّا مؤخرًا. ابتسم لنفسه: "بقي الجزء الأصعب".

٣٥. أنطون

في الشفق الصباحي، شاهدتُ بكسل خنفساء عائمة تقيم علاقة غير طبيعية مع غماز (بلبل) السنارة. استخدم روبن قصبة صيد، كان صديقنا الجديد نشيطًا على عكسنا، كما لو أنه لم يقض ليلة شراب معنا.

- اسمع، لنكن صادقين، إذا كنا أصدقاء بالفعل. لقد رأيت كثيرين من الناس مثلك. من الجيد قضاء الوقت معك، فأنت متحدث لبق، وتعرف الكثير، لكن دعنا لا نتحدث عما تسميه أفضل العقول والعلماء والأبحاث وما شابه ذلك، فهذا كله في الواقع ليس سوى عملية احتيال شائعة.

- لم يضايقني كلامك أبدًا. ومع ذلك، أؤكد لك أن لدينا بالفعل أفضل المتخصصين، وكثيرون منهم يجرون أبحاثًا في مراحل علمية متقدمة، على الرغم من شكوكك. علاوة على ذلك، تتوافق عمليات البحث التي نقوم بها مع الصورة المادية الحديثة للعالم. سأحاول أن أشرح بطريقة شعبية. انظر، في العمل على حل معادلة ماكسويل للضوء، لم نحصل على حل واحد، بل على حلين: موجة عادية، أي حركة الضوء من نقطة إلى أخرى، والموجة الثانية "المتقدمة" موجهة للخلف في الوقت المناسب. يبتعد الفيزيائيون عادةً عن طريقة الحل الثاني، معتبرين أنها تجريد رياضي جميل. ومع ذلك، فإن بعضهم، من غير المرتبطين على الإطلاق بمنظمتنا، يأخذون هذا الأمر على محمل الجد. أكرر، هذه قوانين أساسية لا تتعارض مع الصورة المادية الحديثة للعالم. يمكن لمثل هذه الموجة على الأقل أن تنقل المعلومات من المستقبل إلى الماضي، وإذا جمعت هذا مع مبادئ التناسخ.

- أأنت تخدعني؟

- لسوء الحظ، أنت لست فيزيائيًّا، ومن الصعب علي إثبات كلامي. ومع ذلك، صدقني، نحن نعمل بشكل جيد مع الفيزياء والرياضيات الحديثة. بالنسبة إلى بعض نتائج أبحاثك، على سبيل المثال، دراسة دور الشخصية في التاريخ، فإن نظرياتنا أقل تناقضًا. على سبيل المثال، كشفت الأبحاث التاريخية عن أوجه تشابه مذهلة بين نيوتن وديراك، ليس فقط في منهج البحث العلمي، والإحاطة بالرياضيات، و"الرؤى" والاكتشافات في سن العشرين، ولكن أيضًا في سمات الشخصية، ونقص المهارات الاجتماعية، وأساليب التواصل، وما شابه. صحيح، لو درست سيرتيهما الشخصيتين بعناية، فستجد أن أوجه التشابه مذهلة بكل بساطة. من الممكن أنه بفضل موجة ماكسويل نفسها، انتقلت بعض المعلومات من المستقبل إلى كل منهم، ألا يمكن أن يكونا كذلك الشخص نفسه عبر التناسخ؟ وأنت كل ما تفكر فيه: "المال، المال...".

- والمال أيضًا.

- طبعا المال أيضًا، أين نذهب من دونه؟

- بالمناسبة، اسمع يا معلم عن المال. يبدو أنني تذكرت أين رأيتك من قبل. أمس الأول على القناة الخامسة والعشرين، في برنامج "بنك باندوراشانس". أتشارك فيه بطريقة ما، "البنك الذي لن يخون نفسه أبدًا"؟

- أكل عيش. العالم يتغير. حاليًا، كثيرون يستطيعون القيام بحملات إعلانية جيدة. حاول تنظيم حملة متقنة ضد الإعلانات. هناك هامش قانوني يسمح بتشويه سمعة أحد منافسيك حتى لا يشتري أحد منتجاته أو ينظر باتجاهها، من دون أدنى احتمال لرفع دعوى قضائية ضدك. في هذا المجال البقاء للأقوى. "بنك باندوراشانس" إحدى الحملات البسيطة، هناك أيضًا "هارون وشركاه – شركة النقل الأفضل في أوكرانيا"، كذلك "مياه الينابيع – الأفضل على بعد ستة آلاف كيلومتر"، وأيضًا "مركز فاتال الطبي – طريقة جديدة للحياة"، و... ألسعك شيء؟

٣٦. أندريه

تقترب الذكرى السنوية الخامسة لزواجه. يتزامن "اليوبيل الخشبي" مع السنوات الخمس الأخيرة له في إفريقيا. مرت السنوات، كأسابيع مليئة بالأحداث، كما هي الحال دائمًا في حياة أندريه المضطربة. خلال كل ذلك الوقت، غادر القارة السمراء مرة واحدة فقط في رحلة قصيرة إلى أوروبا، وبالطبع إلى أوكرانيا للعمل. في وقت تلك الزيارة، لم يكن قد وصل بعد إلى فئة "رجل أعمال إفريقي مشهور ومؤثر"، وبالتالي كانت الرحلة سريعة ولم يلاحظها أحد. أدت المسيرة المنتصرة لرقصة اليوكيف خلال العام الأخير إلى ظهور العديد من النسخ المقلدة عنها، ومع ذلك، كما تنبأ صديقه، جلبت الكثير من المال لكليهما. ترك أندريه تقريبًا أسلوب السباحة المستقلة، عندما بدأ تدفق العملات متعددة الألوان الذي عبر تلك الصفقة. تبين أن الأموال كانت كافية لبدء العديد من الأعمال التجارية الجديدة والانضمام إلى الشركات أو مجرد شرائها.

أنشأ إمبراطورية تجارية تحمل شعار الأسد، تغطي البلدان من نيجيريا إلى موزمبيق، شيئًا فشيئًا في كل مكان، بعناية دون بهرجة. أوجد الوظائف للبهاغال ولأهل أندادا الذين أثبتوا أنفسهم، وللبعض من عامة الناس، وللعديد من الأشخاص الآخرين، الذين لاحظ بازيف صفاتهم التجارية واستخدمها. هل أراد ليستروتغ توندا إنشاء شيء مشابه لنفسه بيدي أندريه؟ أم أراده دمية في السياسة الإفريقية؟ "أندريه بازيف البابا في إفريقيا الوسطى"، هذا هراء. أو ربما أراد شيئًا آخر؟ بقيت النيات مجهولة.

بمرور الوقت، لم تتغير ليزي على الإطلاق، فقد أضافت السنوات إليها نبلًا عميقًا متأصلًا كزعيمة مجتمع محلي متنوع. أعجبت بازيف بصراحة في الظروف المختلفة، بحسمها وحذرها وذكائها. بمرور الوقت، تعمقت المشاعر تجاه زوجته، ولم يندم أبدًا على هذا الزواج بين عرقين مختلفين، بل غير حياته بشكل جذري. حياة مليئة بالحب والاحترام المتبادل والتفاهم. الشيء الوحيد الذي لم يستطع فعله سوى بموافقتها هو إشباع حاجته إلى وجود طفل. كان أندريه جاهزًا تمامًا لمثل هذه الخطوة، لكن ليزي ترددت. استمرت المحادثات حول هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا.

- لم يحن الوقت بعد، -قالت- لا تنسجم كل قطع حياتنا مع هذه الفسيفساء.

- في حياتي، لن يحدث هذا أبدًا؛ لأنه لسبب ما، كل شيء يرتد فجأة إلى الخلف، وعليك أن تعتادي على ذلك؛ لذلك دعينا نفعلها.

- لم يحن الوقت -كررت، ثم أضافت إما على سبيل المزاح أو بشكل جدي- لم تعط الأرواح المحلية أي إشارة بعد.

- بالمناسبة، عن الأرواح المحلية. أتمانع أن نحتفل بيوبيل زواجنا خارج منطقة سيطرتها؟ أريد أن أقترح عليك رحلة رائعة وممتعة، خاصة أنه يمكننا الآن تحمل نفقاتها. أوروبا، عدة دول.

- وفي وسط أوروبا كما نعلم تقع أوكرانيا.

- نعم، لم يقم أحد بتعديل الجغرافيا حتى الآن.

- الفكرة جيدة، لكننا سنفعلها بطريقة مختلفة قليلًا. أعرف زوجي جيدًا بما يكفي لأفترض أنه لن

يكون لديه وقت لي على الإطلاق في أوكرانيا. لذلك، بالنسبة لي ستكون هناك أوروبا دون أوكرانيا، أما أنت فحين ستكون في أوكرانيا من الأفضل أن يكون بقربك أهل أوندااندا الذين يحلمون بالديار المقدسة. لا أريد أن أشكل عائقًا أمام مليون خطة في رأسك، كما أني أتوقع أن أوروبا ليست فقط زيارات الأماكن الأثرية والعشاءات الرومانسية والمشي تحت القمر. آمل أن تكون هناك خطط عمل في أوروبا أقل مما هي عليه في كييف.

- هل على المرء أن يخاف عندما لا تكون زوجته جميلة فحسب، بل ذكية أيضًا؟

- ربما يستحق الأمر. سوف تتحقق من ذلك مع مرور السنين. بالمناسبة، أعددت لك هدية أيضًا. من فضلك لا تخطط لأي شيء يوم الجمعة المقبل.

تساءل بازيف عما يمكن أن تكون تلك الهدية. كان لوي لاتاتا يعرف بالتأكيد إلا أنه أظهر ثباتًا أثناء الاستجواب الدقيق. ربما عرف مارميديوك كذلك، إلا أنه أقسم إنه لا يعرف شيئًا. حتى كاترين كانت تعرف؛ لأنه خلال الاجتماع، لاحظ أندريه أن مظهرها غريب مليء بالفضول ويوحي بشيء من التعاطف، ومع ذلك، لم يجرؤ على سؤالها. نسجت ليزي حبكة حقيقية حول تلك الهدية وابتسمت فقط بشكل غامض.

صباح يوم الجمعة المرتقب، كان صمت المنزل مليئًا بالغموض كذلك. اختفى الجميع في مكان ما، الزوجة الصامتة والمحترمة أخذت أندريه من يده وقادته إلى السيارة، حيث كان لوي لاتاتا جالسًا وراء عجلة القيادة. كان صامتًا أيضًا مثل صخرة كبيرة. قرر أندريه عدم طرح الأسئلة، حتى عندما قام ابن حميه بتعصيب عينيه. لاحظ فقط أن السيارة لم تسر في الاتجاه المعتاد لأوندااندا ولكن في الاتجاه المعاكس نحو موبيو. بعد نحو أربعين دقيقة في السيارة بات مرتبكًا تمامًا. أخيرًا توقفت السيارة وساعدته زوجته وشقيقها في الخروج وإزالة العصبة عن عينيه. نظر أندريه حوله، تمهل كي تعتاد عيناه على ضوء الشمس الساطعة. أول ما رآه كان حشدًا كبيرًا من الوجوه المألوفة، توجت بابتسامة مارميديوك العريضة ذات الأسنان البيضاء. كان الحقل الشاسع مزدحمًا بالناس. بدا كأن كل أوندااندا هنا، "الأوكرانيون" بكامل قوتهم، أقارب الزوجة، أسرتها وأقاربها، كاترين، وحتى الأب تاراس، الذي وقف متنحيًا كما لو أنه بذلك يقول إنه لا يوجد ما يفعله هنا. كان العديد من السياح حاضرين، من بينهم وجوه مألوفة. في الجوار، استقرت طائرة صغيرة على الأرض، ناشرة جناحيها الواسعين.

قالت ليزي بجدية:

- عزيزي، لديك قفزة بالمظلة اليوم!

- هل أنت متأكدة؟

- نعم، عادة تسبق ذلك عدة دروس تدريبية، إلا أننا أقنعنا المدرب أن شخصيتك قوية وقدراتك كافية، ويمكنك التوجه إلى ساحة المعركة دون تدريب. بالطبع، يمكنك الرفض، ولكن بذلك ستحرم أصدقاءك من مشهد مثير.

- يا لها من مفاجأة! تعرفين أن المفاجآت قد تكون ممتعة وقد لا تكون؟ ماذا سيفعل كل هؤلاء الناس إذا رفضت؟

- لن يخيب أملهم. بالمناسبة، لم أقل لك أن قفزتي مع قفزتك. وإذا رفضت أنا لن أرفض.

إلا أنها كانت تعرف بازيف جيدًا. لا مجال للعودة الى الوراء. مع انزعاجه الكامن من تصرفات زوجته، مر أندريه بهذه الطقوس، كما أنها كانت تعرفه أكثر مما يعرف نفسه.

إحساس جديد تمامًا! إحساس لا يصدق.

كشفت له ليزي بهجة وسعادة المحيط المتجدد، بضع لحظات من الاندماج في قوى الكون الأساسية والبدائية. كان ذلك أفضل من مشاهدة تدفق الأسماك، لأن يؤدي دورًا مباشرًا في هذه العملية. كانت قفزته الأولى مذهلة، وكانت حبيبته بجانبه، واستطاعت أن تشاركه هذا الفرح.

وسط تصفيق الجمهور بعد الهبوط، عانق أندريه زوجته وقبلها بقوة.

في غضون أيام قليلة، قفزا مرة ثانية، وأدخلا هذا النوع من الترفيه بقوة في حياتهما. بعد ذلك بقليل، علم بازيف أن نوعًا جديدًا من المظلات يسمى "الجناح" قد أصبح رائجًا، ما سمح له بالقيام برحلات أفقية طويلة، ليس أسوأ من الطائرات الشراعية. لم تستطع ليزي تجنب هذا النوع من الترفيه معه.

بعد عدة سنوات من الإقامة في إفريقيا دون الخروج منها تقريبًا، كانت الرحلة إلى أوروبا تقترب.

٣٧. أنطون

كان شريكاي نائمين فوق قصبتي الصيد. نظرت حولي، انكشف أمامي المكان فرأيت كم هو جميل. طريق ريفي ضيق يتجاوز الجبل وينزل إلى الماء. وفي الاتجاه الآخر يضيع النظر في غابة عتيقة ترتفع في طبقات على السفح أعلى الجبل، تتكاثف وتختفي وراء الأفق. تذكرت أننا أتينا بالسيارة واستهلكت منا الطريق فترة طويلة، لم نلتق خلالها بأي قرية باستثناء واحدة فيها عدد من المساكن، ومعظم منازلها مهجورة. ربما أنا في نوع من المحميات الطبيعية؟ بطريقة ما لم أخمن.

حتى لا أزعج الصيادين، انطلقت بهدوء لمشاهدة المناطق المحيطة. عثرت على عائلة من السلاحف على الفور، ثم رأيت ثعبانًا منشغلًا في بعض شؤونه الثعبانية، بينما كنت أتسلق المنحدر إلى الغابة المفتوحة، استوقفني أرنب يجلس فوق العشب يحدق في، وفي ثوانٍ، بمجرد أن تحركت استدار وفر بعيدًا، محدثًا ضوضاء بين الأغصان الصغيرة المتكسرة. ثم التقيت بسناجب وأحد الطيور غير المألوفة، وكنت أسمع بين الحين والآخر تغريدًا غريبًا. كانت الغابة تعج بالحياة الخفية، وكان وجودي بلا شك غير ضروري فيها. أردت فقط أن أمشي على طول الطريق فأتنفس هذا الهواء المنعش، وأمتص الانطباعات والأحاسيس، وهذا ما فعلته. ربما كان من الضروري سحب روبن من موقعه كي يشاهد كل هذا.

عدت بعد عشرين دقيقة، وصلت إلى العشب حيث قابلت الأرنب. خرجت من الغابة إلى النهر حيث كانا يصطادان. النهر أمامي بالفعل، إلا أن هناك خطبًا ما. لم يكن الصيادان في موقعهما، كما اختفت السيارتان والخيمة. أمامي كتلة صخرية ضخمة لم تكن موجودة من قبل. ولا آثار للإطارات ولا من الخيمة. أدركت أنني في مكان آخر. مشيت على الضفة قليلًا، بدت التضاريس غير مألوفة. عدت وسرت في الاتجاه الآخر. الأمر نفسه. يبدو أن أحدًا لم يقصد هذا المكان منذ أيام. سيطر علي خوف بدائي. أدركت أنني قد تهت.

بقي الهاتف أيضًا في الحقيبة داخل الخيمة؛ لذلك سيتعين علي الخروج بمفردي. مهما كان فأنا لست في التايغا السيبيرية، حيث لا يوجد أي شخص على بعد عدة كيلومترات. أيوجد مثل هذه الأماكن الآن هنا؟ تذكرت أنني أثناء سيري لاحظت دربًا مطروقًا جيدًا عبر الغابة، كان أفضل من الممرات التي سرت عليها.

بعد ساعة أخرى من التجوال، لم يتغير الوضع، ثم برزت فكرة رائعة، علي أن أتسلق شجرة لأرى ما يحيط بي. عدة محاولات فاشلة، ها أنا بالفعل على الشجرة. على الرغم من أنني لم أستطع أن أصل إلى الجزء العلوي منها، إلا أنني على ارتفاع يكفي لرؤية طريق جيد على بعد ثلاثين مترًا، كما اتضح فيما بعد، كنت أتجنبه لأنني كنت أسير في دوائر، وها هي المنازل التي مررنا بها في الأفق.

توجهت إليه مباشرة، وفجأة!

اختفت الأشجار على الفور، وانزاحت كما لو كانت حية، ثم انسحبت إلى الخلف. انفتح تحت قدمي جرف يكشف عن منظر طبيعي للجبال الصخرية وصولًا إلى الأفق. أعمت عيني شمس بلا رحمة، فلم أر على الفور أن الوديان لم تكن مهجورة. كان جيش ضخم يتحرك أمامي. كانت

العربات الحيثية الشهيرة تتقدمه. كانت الأكثر رعبا في عصرها. لم يكن هناك الكثير منها، كما قد يتوقع المرء من مثل هذا الجيش القوي، لم يزد عددها على ست عشرة، وسار الجنود بجانب الخيول. شكل المشاة القوة الرئيسة للجيش، كانوا في صفوف متساوية تحت قيادة ضباط فوق تلك العربات. في البداية سار المقاتلون مرتدين سترات قصيرة مفتوحة تحتها تنانير مزينة بخطوط مائلة، مُزين بأحزمة تتدلى منها سيوف قصيرة وفؤوس. كانت صدور معظمهم عارية موشومة. كانوا يعتمرون خوذًا معلقة بأربطة على رؤوسهم، لكن منهم من ألقوا تلك الخوذ خلف ظهورهم. بعض من المشاة كانوا في أردية طويلة قصيرة الأكمام حاملين رماحًا طويلة بأيديهم. كان لدى أكثر من نصف المحاربين دروع، منها ما هو مستطيل الشكل ومنها على شكل فأس عريض ذو وجهين. ساروا في فرق تألفت آخرها من عربات ثقيلة ذات أربع عجلات تجرها ثيران وحمير، وكان يحرسها مشاة بالفؤوس. كان على آخرها مدق[19] كبير.

لم يكن هناك سلاح فرسان، على الرغم من أن الرسل الذين حملوا الأوامر كانوا يمتطون الجياد. في الوسط، كانت حاشية الملك والكتبة وكبار الضباط والكهنة والوجهاء يتنقلون في عربات. بجانب عربة الملك رفعت راية رسم عليها قرص شمس مجنح. همست لي تجربتي المهنية أن هذا المحارب الشاب المريض هو مورشيلي الثاني ابن شوبيلوليوما الأول، الذي سيصبح لاحقًا أحد أكثر الملوك نجاحًا، قاد جيشه المكون من عدة آلاف في مسيرة ضد مملكة آرتساف وحلفائها. كل هذا البحر من الناس يتهادى ويتقدم بمهارة ودون كلل إلى الأمام. تذكرت تعبير الملك المسجل في مكتبة حاتوسا: "وركضت كل الآلهة أمامي" بمعنى أنهم ساعدوا جيشه.

لم أكن قادرًا على الإتيان بأي حركة، أغمضت عيني بإحكام وعندما فتحتهما مرة أخرى اختفت التهيؤات، وأحاطت بي الأراضي الحرجية من جديد، وكان الطريق أمامي. لم أدرك ما الذي حل بي، كما لو أن لدي غشاوة في الوعي ناتجة عن الليلة السابقة وما سبقها، ردني الوقت إلى الوراء وفقًا لذاك القانون المفتوح الذي سجله روبن وتلقيت وسامًا عليه.

المشهد بدا لي حيًّا، وهو لا يزال واقفًا أمام عيني، وقد سمعت ضوضاء حشد كبير من الناس في أذني.

من الضروري أن أقرر بالضبط إلى أين سأتحرك. قررت أن أستريح قليلًا، أن أستند إلى جذع شجرة قبل المشي. سمعت خطى أحدهم وقرقعة الأغصان. وبعد دقيقة، في زي غريب، وقف أندريه بازيف أمامي. وهذا -على ما يبدو- لم يكن هلوسة.

[19] المدق أو رأس الكبش آلة تستخدم لضرب الجدران لشقها. والمدق في أبسط صوره عبارة عن عمود خشبي يحمله عدد من الرجال، ويدفعونه بقوة لتحطيم عائق ما.

٣٨. أندريه

كانت زيارة أوكرانيا قد شارفت على نهايتها. كانت فيها نشاطات أكثر من الزيارة الأخيرة قبل عام ونصف العام. تعامل مارميديوك ببراعة مع افتتاح المعرض، وحفل الكوكتيل والمؤتمر الصحافي. امتعض بالطبع حين عرف أن أندريه لن يحضر أيًّا من النشاطات العامة المخطط لها. ومع ذلك، لم تتغير تعابير وجهه. لم يكن تدريب الجنرال توند عبثيًّا. لم تصدر عنه أي ردة فعل حين أعلن بازيف أنه سيختفي ليوم ونصف اليوم، ويظهر قبل المغادرة مباشرة. كان يعرف نبرة صوته بما فيه الكفاية، ففهم أنه لا جدوى من رفضه أو تقديم المشورة له.

تمكن إلى حد كبير من تجنب الاتصالات غير المرغوب فيها، والتي تتضمن التهجم والتذمر والعروض التجارية المبطنة. أنفذ كل شيء كما خطط له؟ سيكتشف ذلك في الوطن. سرعان ما أصبحت إفريقيا موطنًا له في غضون خمس سنوات! أهي فترة قصيرة؟ لم يلتق بأنطون فقط. خطر له أن يزور العزبة بلا سابق إنذار، لكونه كان يعرف المكان جيدًا، لكن قيل له إنه لن يجد هناك سوى ناتالكا والطفل، ولم يرغب أندريه في الالتقاء بها دون زوجها الجديد. لم يلبِّ أنطون دعوة من أحد. كان من الممكن مداهمته على حين غرة في مكان ما، لكن أندريه لم يرغب في ذلك أيضًا. بقي خيار الاتصال الهاتفي، لكن استثنى هذا الخيار أيضًا.

حل سلام غريب على أندريه. أتاه نتيجة شعور بأن كل شيء قد تم كما ينبغي، وقد فعل كل شيء بالفعل. في نهاية الزيارة، فكر أن بإمكانه تدليل نفسه بقفزة على "الجناح"، خاصة أنه حصل على معلومات حول مكان القيام بذلك. يحتاج فقط إلى تنظيم كل شيء جيدًا حتى لا يتسبب بدعاية واهتمام غير ضروريين بشخصه. وعرف كيف وثق أندريه في مصيره، وبأن القدر يخبئ له مفاجآت جديدة، وأن هذه الصفحة من حياته تكاد تُقلب. كان يعلم أن وقتًا جديدًا على وشك أن يأتي. لكن وقت ماذا؟

٣٩. أنطون

- يا للشيطان! ما الذي تفعله هنا؟ أم أن هذه المنظمة لك وأتباعها يعملون لديك؟ لماذا تحتاج إليها؟

لقد بدا حقًّا مندهشًا جدًّا:

- أنطون؟ كيف وصلت إلى هنا؟ عن أي منظمة وأي أتباع؟ ماذا تقول؟ أأنت ثمل؟

- ماذا ترتدي ألديك حفلة تنكرية؟

- أي حفلة تنكرية؟ هذا زي نادي الطيران "تشيهيرينسكي"، هنا، خلف الجبل. انتهى عملي في أوكرانيا، سيكون من الحماقة أن أحرم نفسي من متعة القفز بالمظلة، خاصة مع الجناح. كنت قد حددت مساري قبل الانطلاق وأخطأت في الحسابات قليلًا، وبالتالي انجرفت إلى هذه الغابة. ما الذي تفعله هنا؟

- لا تفتح عينيك بدهشة ولا تكن سخيفًا. هل كنت تبحث عني؟ عرفت على الفور أنك وراء كل هذا. تزج بأنفك الخبيث المتعجرف في كل الشقوق. قل لي لماذا؟ هل هذا انتقام من ناتالكا؟

- يا الله، لم لا تفهم شيئًا! -زفر في وجهي– لا شأن لناتالكا إطلاقًا. أحببتها، لكن علاقتنا انتهت، ولا أحد يستحق أن يكون سعيدًا أكثر منها، ويمكنها أن تكون سعيدة معك فقط، أو مع شخص مثلك. لا شأن لناتالكا أبدًا.

- ماذا بعد؟ أنت تفهم أنك دمرتني. لقد دمرت كل ما كنت أسعى إليه طوال حياتي، وشطبت مسيرتي العلمية بضربة واحدة، وأغلقت كل المسارات أمامي. أنا مستعد لقتلك، أنا أكرهك كثيرًا.

التقطتُ أنفاسي. غمرت موجة ساخنة مجنونة عقلي وعيني، وارتعدتُ وارتجفت يداي، ربما كانتا تبحثان عن حجر.

- أنت لا تفهم. لا تفهم أي شيء على الإطلاق. لقد فتحت هذه الطرق أمامك. عملك ما كان ليصل إلى تلك المجلة من دوني. هل تفهم؟ على الأقل هي إحدى المجلات العلمية التاريخية العالمية الرائدة والأفضل؟ من يستطيع من بين آلاف العلماء أن ينشر مقالة فيها؟ أهكذا تبادرني!

- أوه، أهذا اعتراف؟ ماذا أفهم؟ أتفهم هذا أيها الثعبان؟ يا له من اعتراف، أنا لم أكتب ذلك المقال! لقد قتلتني!

هدني الإعياء، شهقت الهواء، اختفى صوتي.

- اهدأ، ودعنا نكتشف ذلك. أنت لا تفهم بالضبط. كان لدي فريق كامل عمل من أجلك. لقد عملوا بدقة وعناية.

- فريق؟ - قلت بهدوء متفاجئًا.

- نعم، قام العديد من المؤرخين المحترفين، والإخصائيين النفسيين، بتجميع ملفك الشخصي النفسي، وقد عاونهم المحللون بمؤازرة ضابط سابق في وكالة المخابرات المركزية. درسوا جميع أعمالك وحللوها بالتفصيل، وقد غطوا جميع الاتجاهات، وجميع الأدلة وأخذوا جميع الاستنتاجات

في الاعتبار، ودرسوا أسلوبك وطريقة كتابتك. هذا كله من عملك. كل شيء منك. وكل ما فعلناه أننا ذهبنا إلى أبعد من ذلك بقليل. كنت لتصل إلى كل شيء بنفسك، لاحقًا فقط، ربما في غضون عامين أو ثلاثة أعوام.

- لكن كيف تقول، أيها الوغد، كنت سأصل إلى الشيء نفسه، لماذا كل هذا؟

- ما الذي لا تفهمه حقًّا؟ الزمن! ستضيع وقتك! وهذه الألغاز من الحيثيين، تمكنوا من كشف وإثبات كل شيء بشكل جميل للغاية، وكان من الممكن أن يصل إليها شخص آخر! الا تعلم؟ هذا الفريق العلمي الدولي كله كان يتنفس في رأسك؟ ما الخطأ في تمكينك من زيارة حاتوسا طالما كنت بحاجة إليها، وستمكنك الزيارة من التوصل إلى كل ما هو جديد، وتيسير الوصول إلى الأرشيفات الضرورية، وتذليل آلاف العقبات الصغيرة المستحيلة؟

- أرى أنك أصبحت متمرسًا في العلوم الحيثية؟ - عاد صوتي تدريجيًّا، وامتدت يدي لتضغط على حجر.

- الحياة أجبرتني. بالمناسبة، الأمر مثير للاهتمام حقًّا وكل تلك الألغاز تكلف المال والوقت. هل رأيت أنه بفضل قراءتك ومقارناتك مع اللغة السلافية القديمة، حُلت بعض المشكلات على الأقل؟ إن هذه خطوة حقيقية إلى الأمام في طليعة العلماء في هذا المجال. ربما قرأت أن الأستاذ جونز، بفضل مقالتك، تمكن من إلقاء الضوء على المكان، فقصده بعد مغادرتك حاتوسا، وقد وجد أدلة لدعم استنتاجاتك؟ علمي وصادق تمامًا.

- وكيف استطاع أن يفعل ذلك؟

- جونز مدمن كحول قديم. كان إغراؤه بالمنحة وتحديد الأولويات بشكل صحيح وتحديد المطلوب كافيًا. ليس هناك ذرة اختراع أو تزوير، كل الاكتشافات حقيقية، هذا طريقك ومجدك! وأنا لم أفعل شيئًا سوى المساعدة.

- المساعدة؟ حتى لو كان الأمر كذلك، ففي "حولية العلوم التاريخية" ليس من الممكن نشر مثل هذه المقالة، مهما كانت رائعة. إنهم حريصون، سيخافون من نشره. أدفعت رشوة؟

- هل أنت مجنون؟ المجلة لا تصدر في أوكرانيا ولا حتى في إفريقيا! أي رشوة؟ المقال من الدرجة الأولى، كل شيء مؤكد، اسمك معروف. مرَّ على ستة من أشد المراجعين، وصمد أمام موجة من النقاش.

- تحدث عن ذلك أكثر. أعرف الكثير من السوابق ومقالات أثقل بكثير من باحثين معروفين.

خفت صوت بازيف قليلًا.

- حسنًا، من وقت لآخر، نلتقي أنا واللورد إيفانز في رحلات الصيد وقد حل ضيفًا علي، كما تعلم هو رئيس هيئة التحرير. ألمحت إليه في االبداية فقط، وأعربت عن اهتمامي بالعلوم الحيثية، ولفت انتباهه إلى هذا الموضوع.

- قل لي لماذا فعلت ذلك؟ ما هو الخطأ الذي ارتكبته بحقك كي تقرر مصيري عني؟ هل تشعر بالملل في إفريقيا؟ ألا يوجد شيء لتفعله؟ أليست لديك أي مشاغل أخرى؟ ما الخطأ الذي فعلته؟

- أأنت أحمق! كنت أبحث عنك طوال زيارتي. كنت في انتظارك في جميع مناسباتي، وأنت وحدك لا تريد أن تراني. كل معارفنا يركضون ورائي مثل الكلاب، الجميع بحاجة إلى المزيد والمزيد، الجميع يبحث عن طرق للتواصل معي على الأقل لمدة دقيقة، وأنت فقط تتجنبني! فتحت لك الطريق، ودعمت قضيتك، وأعطيتك دفعة. أأنت غبي كي ترفض المزيد من البحث، وتغير مجال الاهتمامات العلمية! ألم يحن الوقت لترك التاريخ! ألا يكفيك ما هدرته من الوقت في العمل مثل العتالين، ألا تعرف؟

حاولت الاقتراب ببطء من أندريه، لكنني كنت جامدًا كشجرة.

- ماذا؟ لست أعمل وحيدًا هكذا؟

- أتعتقد؟ لقد رأيتُ العالم، والتقيت بالناس، تعرفت إلى كل التطلعات والأفعال البشرية المتنوعة تقريبًا، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أنه لا يوجد شيء أفضل من شلة أصدقاء الدراسة. لماذا يجب على أصدقائي، وهم الأفضل والأكثر موهبة وتنوعًا أن يتغاضوا عن إمكانية تحقيق ذواتهم؟ لم أكن أنا من حدد طريقهم، لقد اختاروه بأنفسهم وحققوا الكثير، ولكن لم تكن لديهم أجنحة تخولهم للقفز من مستنقعهم! لقد كنت أنا، أندريه بازيف، من دفع كل واحد منكم إلى الأمام قليلًا. قوة إضافية في طريقكم. وأنت وحدك لاحظت هذا؛ لأن الأمر معك كان أكثر صعوبة. قبِل الجميع بكل شيء من دون اعتراض. لم ينتبهوا. آمنوا بموهبتهم. كانوا سعداء واستمروا في طريقهم. وهم يرغبون بالمزيد ويطلبون المزيد.

- جميعهم حقًّا؟

قال بازيف في نفسه:

- حسنًا، ليس كلهم. إيغور رياضي، ولا يدين بكل انتصاراته إلا لنفسه وإنكاره لذاته وتفانيه. على الرغم من الفساد الهائل في مؤسساتنا الرياضية وفي العالم، إلا أنني لا أستطيع مساعدته على الإطلاق، وهو لا يحتاج إلى أي شيء، فهو بطل أوروبا. وهكذا. هذا كل شيء. أنت فقط تقاوم. أيجب أن أشكرك!

- من أنت كي تتظاهر بأنك الرب؟ أأشكرك لأنك تؤلف الأقدار. كما تعلم، إذا كنت قد أصبحت بالفعل متخصصًا في الحيثيات، فتذكر أسطورة الثعبان هدام: "كل خير يقابله أجر".

اقتربت منه وضربته. ترنح أندريه وسقط على الأرض. سقط الحجر من يدي وضاع في فوضى الأحجار الأخرى المتناثرة على طول الطريق، وعلقت نظرتي على القرص الباهت فوق وسام النجمة الزرقاء على صدري.

٤٠. الكون

القدر -أو من يسيطر عليه- ضحك عليهما بهدوء وابتهج بزمن تناثر الأحجار، ووقت جمعها الذي لم يحن بعد. وكان مفتونًا بتلك الدوافع السخيفة والأحلام التافهة والغطرسة والكبرياء. بما يتحكم بأفعال الإنسان.

علام نقضي حياتنا وما الذي سنخلفه وراءنا، وكل هذه الضجة؟

٤١. أنطون

وصل بازيف.

أخبرني ذلك العديد من الأصدقاء على التوالي. اتصل أحدهم تلو الآخر، وصلت أصواتهم إثر رنين الهاتف المحمول الحاد الوقح، خلال المحادثات الغريبة حاولت التخلص من وطأة النعاس الصباحي.

أخفي، عادةً، صوت هاتفي المحمول ليلًا، لكنني أنسى أن أجعله في حالة الصمت مرة أو اثنتين في السنة. اليوم نسيت؛ فعوقبت بسبب نسياني، عوقبت بالاستيقاظ المبكر وخبر وصول بازيف.

أول من أيقظني كان روبن.

كان كل شيء مثل آخر مرة تقريبًا، على الرغم من وجود عاصفة ثلجية خارج النافذة، إلا أن شيئًا ما تغير وحل السلام، كما لو أن عبئًا ثقيلًا مؤلمًا في الحياة قد اختفى، والآن يمكنني بدء حياتي تقريبًا من الصفر.

من دون الاستماع إلى ما يقوله روبن حتى النهاية، وأنا متأكد من أن الآخرين سيتصلون بعده، قلت له متذمرًا عبر الهاتف:

- حسنًا، أين أندريه؟ سأذهب إليه الآن!